علماء عرفهم الإسلام

حازم محمد

الكتاب: علماء عرفهم الإسلام

الكاتب: حازم محمد

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

محمد ، حازم

علماء عرفهم الإسلام / حازم محمد

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٢٢ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولي: ١- ٦٩٦- ٤٤٦- ٩٧٧- ٩٧٨

أ – العنوان ٩٢٢,١ رقم الإيداع : ٤٧٦٦ /٢٠١٨

علماء عرفهم الإسلام

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

لقد نبغ المسلمون في جميع ميادين المعرفة الإنسانية في ميدان العلوم النظرية والتطبيقية، وفي ميدان العلوم الكونية والإنسانية، وكان نبوغهم فذا في علومهم الخاصة كعلوم الآداب واللغة ، وتنوعت هنا نظرياتهم واتجاهاتهم، وكذلك كان نبوغهم في العلوم المتعلقة بالعقيد والشريعة، فكتبوا العديد من المصادر والمراجع المعرفية التي بحثوا فيها أصول وجهات النظر في الألوهية والكون والإنسان، وهم في هذا الباب وضعوا علوما بأكملها تنهل منها جميع المذاهب والنزاعات، وهي من خير ما توصل إليه العقل البشري، وكان لها تأثيرها في الفكر العالمي وخصوصا في الفكر الأوروبي عبر عصوره الحديثة.

على أن أكبر ما قدمته قرائح رجال الفكر الإسلامي للثقافة العالمية هي أعمال فلاسفة وعلماء أمثال: ابن باجة، وابن تيمية الحراني، وابن حزم الأندلسي، وابن رشد رائد العقلانية ومؤسس مذهب الرشدية، والشيخ الرئيس: ابن سينا، وابن طفيل، وابن عباد الرندي، وابن عربي، وابن متويه، والكندي، والماوردي، والميهني، والمقدسي، والنفري، والهجويري.. وغيرهم

كذلك أعمال علماء المسلمين في ميدان الجغرافيا بجميع أنواعها وبشتى فروعها من أمثال: اليعقوبي، وياقوت الحموي، والمقسي، والمسعودي، والقزويني، والزمخشري، والدمشقي، وابن بطوطة، وابن الفقيه، وابن الجيعان، وابن الحائل.. وغيرهم.

وفي ميدان الدراسات التاريخية بمختلف أنواعها فلا ينسى الباحث إسهامات المسلمين المتنوعة، والمتمثلة في أعمال: ابن الأثير، وابن الجوزي، وابن الخطيب، وابن الصرفي، وابن العميد، وابن الفرات، وابن الفلاني، وابن إياس، وابن تغربردي، وابن خلدون، وابن خلكان، وابن شداد، وابن عبد الظاهر، والجبرتي، وساورس بن المقفع، وسبط ابن الجوزي، والسخاوي، والسيوطي، والطبري، وفي الدراسات الأدبية والنقدية والإبداع الأدبي تقف شامخة أعمال كل من: الميداني، وياقوت الحموي، والمفضل، والضبي، والمرزوقي، وأبي الطيب المتنبي، والمبرد، والكميت بن زيد الأسدي، والقلقشندي، وقدامة بن جعفر، وأبي علي القالي، والفرزدق، وجرير، والأخطل، وعبد القاهر الجرجاني، والقاضي عبد العزيز الجرجاني، والجاحظ، والقزويني، والتبريزي، وابن الأثير، وابن المقفع، وابن بسام، وابن خفاجة الأندلسي، وغيرهم من النقاد والدارسين والمبدعين.

وفي الكتابة عن العمارة نذكر جهد كل من: ابن شحتة، وابن جبير، وابن رستة، وابن فضل الله العمري، والبلوي، والحنبلي، والخطيب البغدادي، والمقريزي، واليعقوبي.. وغيرهم

وفي العلوم الطبيعية وفروعها تبرز بحوث وإنجازات كل من: المجوسي، والمجرطي، والكرخي، والكحال، والكاشي، والقوهي، والقزويني، والقرطبي، والفارسي، والغافقي، والطوسي، والرازي، والدنيوري، والدميري، والداوودي، وداود الإنطاكي، وحنين بن إسحاق، والخوارزمي، والجيلي، والجلدكي، والجاحظ، والتيفاشي، والبوزجاني، والبيروني، وابن البيطار، وابن النفيس، وابن بدر.

وفي الدراسات اللغوية تبرز جهود وأبحاث كل من: ابن الأثير، وابن السكيت، وابن دريد، وابن سلام، وابن سيده، وابن فارس، والازهري، والزمخشري، وابن منظور، والجوهري، وسيبويه، والسيوطي، والزبيدي، والفيومي، والمبرد، والأصمعي.. وغيرهم.

وفي العلوم الاجتماعية وفروعها، نرى جهد كل من: ابن الشحنة، وابن الصرفي، وابن تيمية، وابن جماعة، وابن خلدون، وابن سلام، وابن سينا، وابن طباطبا العلوي، والفارابي، والقابسي، والقرشي، والقلقشندي، والكندي، والماوردي، والمسعودي، والمقريزي، والهيثمي، وغيرهم

وفي الدراسات الإسلامية والفقهية تظهر اجتهادات ودراسات وبحوث كل من: ابن الصلاح، ابن المرتضى، ابن النجار، وابن حزم الأندلسي، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه، والترمذي، وأبو داود، والدرامي، وأبو حنيفة النعمان، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وابن عابدين، وابن قدامة الحنبلي، وابن قيم الجوزية، والأمدي، والباجي، والصنعائي، وأبو جعفر الرازي، والنووي، والنيسابوري، والمرعيناني الحنفي، والمرداوي، والماوردي، والكيليني، والقرافي، والكسائي، والغزالي، والقرطبي، والطبري، والطبرسي، والشيرازي، والزمخشري .. وغيرهم

إن أكبر ما قدمه المفكرون المسلمون للثقافة العالمية هوا أعمال مفكريهم وفلاسفتهم وكذلك أعمال علمائهم في شتي ميادين العلوم الرياضية والطبيعية، وعلوم الأرض والسماء من: جغرافيا، وفلك، وطب، وصيدلة، وكيمياء، ونبات، وحيوان،

وفي نفس الوقت الذي اهتموا فيه بدراسة الإنسان من شتى نواحيه، فأسسوا علم الاجتماع، وعلم العمران البشري، وفلسفة التاريخ والحضارة.

فما زالت أسماء العلماء الذين شكلوا تراثنا الإسلامي تتردد في المشرق والمغرب، ومن هؤلاء: الخوارزمي مبتكر علم الجبر والتفاضل، وجابر بن حيان رائد الكيمياء والصيدلة، والحسن بن هيثم عالم البصريات والضوء وأول من توصل إلى خطوات المنهج العلمي في البحث، وابن سينا الطبيب الفيلسوف، والبتاني والخازن عالما الطبيعيات والرياضيات، وابن خلدون رائد علم الاجتماع وفلسفه التاريخ، ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية وغيرهم ..وغيرهم..

وختاما نقول: لقد كانت الثقافة الإسلامية مثالا فريدا بين الثقافات العالمية لا من حيث أسباب نشأتها والعوامل التي أدت إلى ظهورها والجهود التي تضافرت في نشأتها وتنميتها، فهي خلاصة لجهود أجناس البشر على اختلاف نزعاتهم وملكاتهم وعلومهم، وفيها يتجلى التعاون المثمر بين الشعوب في ظل الإيمان بالإله الواحد الحق، والإيمان بكرامة الإنسان ورسالته.

ومنذ ظهور تلك الحضارة في مرحلتها الأولى بدأ علماء الإسلام يقومون في تقبل الثقافة وتجديدها وتنميتها ونشرها، وإذا كان الدور الذي قاموا به في الماضي من هذه الناحية رائعا، فإن دورهم في الحاضر والمستقبل يجب أن يكون أكثر روعة، وذلك بفضل توسط بلادهم بين القارات الكبرى، وبفضل علاقاتهم بمختلف مواطن الحضارة..

لقد آن الأوان لأن نكف عن جلد ذاتنا، وعدم الثقة في أنفسنا، وطريقنا إلى ذلك هو وصل الماضي بالحاضر، على أن نبدأ من حيث انتهى الأجداد الذين يجب أن نضعهم أمام أعيننا كمثل أعلى وقدوة حسنة.

ابن جرير الطبري (٢٢٥ -٣١٠ هـ)

شيخ المؤرخين، وأستاذ المفسرين

هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ولد في مدينه طبرستان في عام ٢٢٥ هـ، وطبرستان إقليم جنوبي بحر قزوين في أواسط آسيا، ينسب إليه من أبنائه كثير من نوابغ تراثنا العربي، على تنوع مجالاته، ولكن إذا قيل "الطبري" فحسب لم ينصرف الذهن إلى احد منهم_ علي كثرتهم وعظمتهم_ غير الإمام الكبير الذي اشتهر بما أغنى به تراثنا الإسلامي من ذخائره النفيسة، وأهم ما حفظ لنا منها تفسيره وتاريخه الكبيرين، وبهما لم يزل وجيها بين علمائنا حتى الآن.

وأخباره الباقية علي قلتها وتفرقها لا تكفي لتكون سيره خاصة، وإن أعانت في رسم صورته الشخصية، ويبدو من كل هذه الأخبار كأنما نذره القدر منذ صباه لأداء رسالة دينية ومقدسة فهيأه لها بمأثورات أسرته وشمائله معا وتمكن عشقها منه ففرغ لها طول حياته فلم يعرض غيرها حتى ودعها مع الحياة في شيخوخته بعد أن عمَّر حوالي ستا وثمانين عاما، ولقد مضى القدر يعده لها باكرا حتى إذا أطلق حملها في صباه، وهذه الرسالة هي رسالة "العلم" بمعناه الواسع القديم أو رسالة التعليم والتعلم التي استغرقته فاجتهد هو يستغرقها فبلغ من ذلك غاية ما يبلغ وسع إنسان..

وننظر إلى أخبار حياته فلا نرى له عملا ولا خلقا ولا نية ولا مسعى إلا وهو يمت إلى تلك الرسالة بسبب، ويعنيها، فقد رحل عن مدينته في مقتبل عمره باحثا

عن العلم، بعد أن أخذ من طبرستان ما استطاعت أن تعطيه له فطلب العلم في الري وغيرها من المدن والقرى فلم يكن يكتفي بالتعلم على يد شيخ واحد، إذ كانت لديه قدره على استيعاب ما يعلمه له شيخان في وقت واحد ولو كلفه ذلك من الجهد والمال ما لا يطاق

بعيدا عن السلطة

كان يطلب علم الفقه والتفسير والحديث والتاريخ من مشايخه المختلفة، وبهذا العشق لرسالته أقبل عليها منذ صباه مستهينا بالمشاق والعقبات، ومن توفيق الله أن تدوم له معونة أبيه طول حياته، فقد خلف له ضيعه كان رزقها يأتيه بيسر، فأغنته عن السعي لتحصيل رزقه أو السعي لدى الملوك والرؤساء لنيل المال والحظوة كما كان يفعل أقرانه من العلماء معسري الحال، ومكنته من أدوات العلم ومن الرحلة إلى معاهده في أمصار العالم الإسلامي فأخذ ما وسعه من شيوخ عامل، والري ونحوهما في وطنه طبرستان، ثم شيوخ بغداد أو الكوفة والبصرة وواسط في العراق، وشيوخ دمشق وغيرها من بلاد الشام وشيوخ الفسطاط في مصر، ثم استقر في بغداد منذ أواخر حياته حتى مات ودفن فيها عام ٣١٠هـ وهي مكفن المئونة متفرغا للقراءة والكتابة احتسابا لوجه الله، بعد أن كاد يستوعب كل علوم عصره الأصلية القديمة والجديدة المعاصرة له.

وقد صار إمام عصره الذي كان من أزهى العصور في تاريخنا ثقافة وحضارة، وظهر علو هامته بين أعظم معاصريه حتى في حياة جماعة من بقية شيوخه، وشهد له أفضلهم بالسبق والتقدم.. منهم المبرد (صاحب كتاب الكامل في الأدب)، ولقد بلغ

الطبري في عدة علوم شرعية وأدبية وكونية غاية ما يبلغ المختص في كل منها على حدة، مع سعة اطلاعه علي غيرها.. يقول كاتب سيرته وتلميذة عبد العزيز بن محمد الطبري:

"كان أبو جعفر قد نظر في المنطق والحساب والجبر والمقابلة وكثير من فنون أبواب الحساب وفي الطب وأخذ منه قسطا يدل عليه كلامه في الوصايا.. وكان كالقارئ الذي لا يعرف إلا الفقه والحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب، وكان عالما بالعبادات جامعا للعلوم، وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلا على غيرها".

وقليل ما بقي من أخباره يدل على أنه كان من أفذاذ الموسوعيين في العالم إلى جانب حظه الواضح من العبقرية وصلابة الشخصية.

مذهب خاص

وقد بدأ متفقا على مذهب الإمام الشافعي، وكان من أعلم الناس بفقهه وفقه غيره، وقد ألف في الفقه المقارن كتاب "اختلاف الفقهاء"، ثم استقل في الفقه بمذهبه الخاص، وتبعه كثير من العلماء، ولكن مذهبه انقرض بانقراض أتباعه، فلا لضعفه بين المذاهب الفقهية، وليس انفراده بمذهبه هو الدليل الأوحد على عظمة حظه من النظر والاستقلال بالرأي والجرأة في الحق، ومن الاجتهاد والأمانة، بل يؤيد ذلك كثير من ترجيحاته بين الآراء الفقهية والتاريخية والفلسفية، فلم يكن المقلد في دعوته، بل كان يعتمد على عقله وعلمه في توجيه دعوته..

وقد امتحن الطبري في ختام حياته بمظاهرة الحنابلة عليه لمخالفته إياهم في بعض الآراء والأحاديث، فاضطهدوه واعتدوا عليه وعلى داره ومنعوه من الخروج منها والاتصال بطلاب علمه، حتى مات عقب ذلك بعام، فدفن ليلا خوفا من العامة وقيل م يؤذن به أحد، فاجتمع على جنازته من لا يحصي عددهم إلا الله، وصُلِيَّ على قبره عدة أشهر ليلا ونهارا ورثاه أناس كثيرون من أهل العلم والأدب.

وهكذا تكون حياة حامل الرسالة من محنة البدء حتى الختام، مات الطبري مغضوبا عليه، وترك لنا الكتب التي لا تفنى حتى يرث الله الأرض وما عليها؛ فتعلم العرب فن التاريخ منه حتى أنه يُعد شيخ المؤرخين وأستاذ المفسرين.

أبو حيان التوحيدي (٣١٠ هـ – ٤١٤ هـ)

من الفقه إلى المنطق إلى التصوف

هو أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، ولد ببغداد سنة ٣١٠هـ من أبوين فقيرين إذ كان أبوه – فيما يقال – تاجرا متنقلا يبيع نوعا من التمر يعرف باسم التوحيد..

والباحث في حياة التوحيدي لن يجد في مؤلفاته أية إشارة إلى أسرته، وذلك ما جعل بعض الباحثين يعلله بأن التوحيدي كان يعلم أنه نشأ في أسرة رقيقة الحال، عديمة الحسب والنسل، فلم يكن يجد داعيا للحديث عن نشأته، أو الإشارة إلى أسرته.

وكذلك لا يعلم أحد الكثير عن طفولة أبي حيان، ولكن من الواضح أنه عاش طفولة معذبة، فقد ماتت أمه وكان صغيرا فعاش في قمع وحرمان، وكان هذا الحرمان سببا في التجائه إلى العلم والتحصيل علَّه يجد فيهما تعويضا عن بعض ما فاته من نعم الحياة.. وكأنه كان يتحدث عن نفسه وهو يقول: "وهكذا اشتد في طلب العلم تشميره واتصل في اقتباس الحكمة رواحه وبكوره، وكانت الكلمة الحسنة أشرف عنده من الجارية العذراء، والمعني المقوم أحب إليه من المال المكوم".

والمتابع لحياة التوحيدي، في عهد طلب العلم، لوجد أنه يتسم بحب التنوع، والذي دفعه إلى الأخذ من كل علم بطرق، فكان من ذلك اهتمامه بدراسة الفقه والحديث وانشغاله بعلم الكلام والتوحيد، وعنايته بمسائل المنطق والفلسفة، وانصرافه إلى البحث في اللغة والنحو، ثم انشغاله أخيرا بالتصوف.. وليس من شك أن محاولة الجمع بين كل هذه الأصناف المختلفة من المعارف قد تعرض صاحبها لخطر السطحية، ولكن الملاحظ بالنسبة لأبي حيان أنه كان شخصية فلسفية طيعة تستخلص الأسئلة من كل ما يقع أمامها، سواء أكانت المسائل خلقية، أو اجتماعية أو لغوية أو اقتصادية أو نفسية.

ولم يكن اهتمام أبي حيان بكل هذه المعارف سوى مجرد نتيجة لميله إلى الدهشة، ونزعته نحو التساؤل، واستعداده للبحث، فإذا عرفنا إلى ذلك أن القرن الرابع الهجري كان عصرا ثقافيا خصبا ظهر فيه الكثير من نوابغ الأدب والعلم وغيرهما من المعارف أدركنا سر تلك الروح الموسوعية التي أتاحت لأبي حيان الفرصة المزج بين كل هذه الثقافات، وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى القول بأن التوحيدي "كان فليسوفا مع الفلاسفة، ومتكلما مع المتكلمين، ولغويا مع اللغويين، ومتصوفا مع المتصوفين".

ثقافات متنوعة

تتلمذ التوحيدي على كبار علماء عصره، فتلقن أصول الفقه والمنطق والفلسفة والإلهيات والتصوف والحديث والنحو واللغة على يد أعظم مفكري القرن الرابع الهجري، وهذا ما جعل امتزاج كل هذه الثقافات المتباينة يكون بداية نزعة تفكير

موسوعية مما أدى إلى اتسام فكره وإنتاجه الأدبي والفلسفي بطابع تحرري تنويري لا نكاد نجد له نظيرا عند غيره من مفكري عصره

وبعد أن تلقى التوحيدي كل هذا العلم، لم يجد عملا سوى الوراقة (نسخ الكتب وتصحيحها) فعمل بهذه المهنة على مضض، فإنه كان يطمح في الحصول على مركز اجتماعي يتناسب مع مستواه العلمي، وهذا هو السبب الذي حاول من أجله الاتصال بالوزراء والكبراء طمعا في التخلص من تلك المهنة الشاقة التي يقول عنها إنها حرفة الشوارم ، لأنها ضياع للعمر والبصر"

وحاول التوحيدي محاولات عديدة للاتصال بالوزراء بقصد التخرج من الضائقة المالية، ونيل الحظوة لدى الوزراء والكبار في عصره، ومن ذلك اتصاله بالوزير أبي محمد المهبلي – وزير معز الدولة – وكان مشهورا بحب العلم وتشجيع العلماء، ولكن التوحيدي جاهر أمام الوزير ببعض آرائه الحرة، التي لم يرض عنها الوزير، خصوصا وهو بعيد عن التسامح مع أصحاب العقائد والبدع فنفاه إلى بغداد، وعاد يعيش فيها على الكتابة مرة أخرى.

وبعد وفاة المهبلي غادر بغداد في محاولة للاتصال بأبي الفضل بن العميد وزير الري، وكان أبو حيان ينتظر من ابن العميد أن ينقذه من براثن الفقر، وأن يسبغ عليه الكثير من المنح والعطايا، ولكنه أخفق هذه المرة كما أخفق من قبل، ولا يوجد سبب معلن يدل على سر ذلك الإخفاق مع ابن العميد سوى اتهام التوحيدي له بالجهل وادعاء العلم مما يغضب بالطبع الوزير، بالإضافة إلى تنافس التوحيدي مع

ابن العميد في صناعة الأدب، وهو ما أوغر صدر الوزير الذي طرده التوحيدي من مجلسه.

أحاديث وروايات

والمتأمل في كتابه "مثالب الوزيرين" يلتقي بالكثير من الأحاديث والروايات التي دبجها التوحيدي ضد الوزيرين ابن العميد والمهبلي، وقد حاول الاتصال بالوزير الصاحب بن عباد أملا في أن يجد عنده ما لم يظفر به عند ابن العميد، وكانت معه قصة طريفة فعند وصوله مدينة الري، قال له الصاحب: "الزم دارنا وانسخ لنا هذا الكتاب" ، فقال له التوحيدي: "أنا سامع مطيع" قال التوحيدي لبعض الناس في القصر أنه توجه إلى هذا الباب من العراق ليتخلص من حرفة الشؤم، فلما بلغ الصاحب كلام التوحيدي اغتاظ منه، ثم ألح عليه في قراءة رسالته التي كان التوحيدي قد توسل بها إلى ابن العميد وكان الوزير بين خصمين لدودين فقرأها التوحيدي عليه مما أهاج حفيظة الصاحب ضده، وخصوصا وأن التوحيدي قد وصف فيها ابن العميد بأنه سيد الناس، وما إلى ذلك من أوصاف اغتاظ لها الصاحب، وكان التوحيدي يعامله معاملة الند، بل كان يعدل عليه رسائله، ولا شك أن الصاحب بن عباد قد وجد في مسلك أبي حيان تطاولا منه على رئيسه وولي نعمته ولذلك قد انتهت العلاقة بن الرجلين بالقطيعة، إذا فارق التوحيدي فناء الصاحب بن عباد سنة ٣٧٠ هـ، بعد صلة دامت حوالي ثلاث سنوات، رجع على أثرها إلى بغداد صفر اليدين.

ولكـن إذا كـان أبـو حيـان لـم يوفـق فـي صـلاته بـابن العميـد ، والمهبلـي والصاحب بن عباد، فالظاهر أنه كان أكثر توفيقا مع الوزير ابن العارض أبي عبد الله بن سعدان وزير صماما الدولة البويهي، فتوطدت العلاقة بين أبي حيان والوزير ابن سعدان فنسخ له كتاب الحيوان للجاحظ، وألف له رسالة في (الصداقة والصديق) ساردا كل تلك الأقاصيص والأحاديث التي رواها لنا في (الإمتاع والمؤانسة) وكان يعامله معاملة الأصدقاء، ولا يتورع منه خيفة، ولا يخاف إبداء رأيا يعارضه، فقد كان الوزير ابن سعدان واسع الصدر، رحب الفكر.

ولكن للأسف، فلم يبق ابن سعدان في الوزارة مدة طويلة إذ ظهر له عام ٣٧٥هـ خصم لدود ظل يكيد له وينصب الشباك للإيقاع به، حتى قبض عليه هو وأصحابه وأودعوا في السجن وانتهى الأمر إلى قتل ابن سعدان بأمر من صماما الدولة في نهاية عام ٧٣٥هـ، والتوحيدي وقتها خشي أن يلاحقه أعوان الوزير الجديد بتهمة أنه كان من رجال الوزير القديم، فهرب إلى شيراز، وهناك راح يتردد على المتصوفة ويعيش معهم، وظل مختفيا يعاني من فقر مدقع بدليل قوله: "لقد غدا شبابي هرما من الفقر، والقبر عندي أهون من الفقر".

إحراق الكتب

وقد يئس في ذلك الحين من الناس، فأحرق مؤلفاته ضانا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته، وكذلك يبين لنا التوحيدي حقيقة السبب الذي من أجلة سعى وراء الشهرة الأدبية، وكأنما هو يريد أن ينبهنا إلى عاقبة الطموح الزائف الذي لا يتخذ من العلم سوى مجرد مطية للجاه والرياسة.

فإحراقه لكتبه يعني أنه فقد المعنى وغاب في دائرة العبث، وصار يتسول قوته من الناس بعدما ظن أنه في رياستهم، وباع الدين والمروءة – كما ذكر بنفسه – وبلا ثمن يذكر؛ فالتوحيدي كان يشعر أن هذه الكتب لم تعد تعبر عن حالته النفسية الراهنة، ثم هو يدرك أنها تعبر عن إخفاقه في الظفر بما كان يأمله من مجد أدبي. هذا الشعور بقرب الرحيل قد ولد في نفس التوحيدي ثورة كبري على أعز ما يملك، فلم يتردد في التمرد على كتبه العزيزة.. ومات أبو حيان التوحيدي شريدا في شيراز عام ٤١٤هـ، بين أعوانه ومريديه من المتصوفة ولم يذكره أحد وقتها في كتب وفيات الأعيان.. وقال في رواية عن موته أحد مريديه:

"لما احتضر أبو حيان كان بين يديه جماعة فقالوا: "اذكر الله فإن هذا مقام خوف، كل يسعى إلى هذه الساعة".. وجعلوا يذكرونه ويعظونه، فرفع رأسه إليهم وقال: "كأني أقدم علي جندي أو شرطي، إنما أقدم علي رب غفور".. وقضي، وهكذا انتهت حياة ذلك الرجل الذي عاش معذبا في دنيا الناس ولكنه ظل آملا في رحمة الله!

أحمد بن حنبل: (١٦٤ – ٢٤١ ﻫ)

إمام أهل السلف

هو أبو عبد الله أحمد بن حنبل بن هلال السيباني، نشأت أسرته بالبصرة، ثم انتقل جده إلى خراسان، وكان واليا على سرخس في عهد بني أمية، وولد ببغداد سنة ١٦٤ﻫ – ٧٨٠م، وقد مات والده وهو طفل فقامت أمه بتربيته، وكانت بغداد في ذلك العهد عاصمة الدنيا، وقد زخرت بأئمة العلم من قراء ومحدثين وفقهاء ومتصوفة وأدباء وفلاسفة، فاتجهت نفسه إلى دراسة علوم الشريعة، وكان في العراق على عهده طريقان لدراسة هذه العلوم: طريق أهل الرأي من الفقهاء الذين يعنون باستخراج الفتاوى والآقضية الفقهية أكثر من رواية الحديث، أما الطريق الآخر هو طريق المحدثين الذين يعنون برواية الحديث وحفظة أكثر من استنباط الفتاوى، فاختار المسلك الثاني، وطلب الحديث من علمائه في العراق، وكان اتجاهه إلى ذلك في سنة ١٧٩ﻫ – ٧٩٥م .

فمكث في بغداد سبع سنوات يطلب الحديث على هشيم بن بشير الواسطي، ثم رحل بعد ذلك في طلب الحديث، فرحل إلى البصرة والحجاز واليمن والكوفة والشام، وقد التقى الشافعي في الحجاز فأخذ عنه فيها أيضا، ولكنه كان قد اكتمل علمه، حتى كان الشافعي يعود عليه أحيانا من معرفة صحة الأحاديث، وكان مع جودة حفظه يدون كل ما يرويه عن المحدثين، ثم قعد للتحديث والفتوى بعد أن بلغ

الأربعين، فصار صيته في بغداد وغيرها من البلاد، وقصده طلاب الحديث والفقه من سائر النواحي حتى ذكر بعض الرواة أن درسه كان يبلغ نحو خمسة آلاف، وأنه كان يكتب منهم نحو خمسمائة، على أنه لم يكن يسمح لهم إلا بتدوين الحديث، أما فتاواه الفقهية لم يكن يسمح أن يدونوها أن أو ينقلوها عنه، لأنه كان يرى من البدع تدوين آراء الناس في الدين بجواز القرآن والحديث. وقد ذكر أن بعض تلاميذه يدون عنه مسائل ونشرها بخراسان، فقال لأصحابه: "اشهدوا أني رجعت عن ذلك كله" وكذلك كان ينهى عن كتابة فتاوى غيره من الفقهاء.

مدرسة الصحابة

وقد كان بهذا يعيش في غير عصره، في عصر الصحابة والتابعين، يتأثر بأقوالهم وأفعالهم، ويرى من البدعة إحداث شئ لم يكن في عصرهم، وقد غالى بهذا في مذهب أهل السنة، وتشدد فيه كل التشدد، حتى وصفه بعض معاصريه بأنه تابعي كبير تخلف به الزمن، وقد حمله هذا عن الإعراض عن كل ما خاض فيه أهل عصره مما لم يؤثر عن السلف الصالح رضوان الله عليهم، بل لم يكن يستحيز لنفسه الرد عليهم، فكان ينهى الناس عن علم الكلام، لأنه يتكلم في العقائد بطريقة فلسفية لم تكن معروفة للسلف، وهو في هذا يتأثر بمن كان منهم لا يتحرج هذا التحرج من التجديد في الإسلام فهو أقرب إلى أبي بكر الصديق منه إلى عمر بن الخطاب.

وقد كان ذلك سببا لموقفه المعروف من فتنة القول بخلق القرآن، وكان المعتزلة – إحدى الفرق الإسلامية – قد أثارت قضية معناها أن كلام الله "القرآن الكريم" مخلوق محدث وليس بقديم، ورأى الإمام أحمد بن حنبل أن هذا الرأي

فاسد وجهر فيه برأي أهل السنة ، وأصر على القول بأن القرآن غير مخلوق وصبر على ما أصابه من الحبس والجلد، وقاوم في ذلك أقوى ملوك الأرض من المأمون والمعتصم والواثق، وهذه شجاعة في الرأي يحسد عليها، وقد دونت به صفحة في تاريخ المجد والشجاعة الفكرية، ولكن يؤخذ عليه أنه كان يكفِّر مخالفيه في القول بخلق القرآن، ردا علي تكفيرهم له، فغالى كلا الفريقين في التعصب برأيه حتى صارت فتنة شديدة شغلت المسلمين زمنا طويلا، ولو أن كلا من الفريقين راعى ما جاء به الإسلام من التسامح في الرأي لترك الآخر من غير تكفير أو حمله على رأيه بالقوة، ولكن جاء الواثق لينقذ الإمام ابن حنبل من هذه المحنة.

وقد أخذ الإمام نفسه بالعلم من أول حياته إلى وفاته، لا يلين في قوله ولا يخشى لومة لائم، وقد ورث عنه هذا أتباعه من بعده، بل غالى بعضهم فيه أكثر منه.

وهذا وقد عاش الإمام فقيرا محدود الدخل، وكثيرا ما كانت تضطره الحاجة لأن يعمل بيده ليكسب قوته أو يؤجر نفسه في عمل يعمله إذا انقطع به الطريق، ولم يكن معه ما ينفق منه، وكان يؤثر ذلك الكره والشقاء على أن يقبل عطايا الملوك، وبذلك حرر نفسه، وأنهك جسده، ومن جهة مورد رزقه المعتاد فقد كان يعيش من عائد عقار قد تركه له أبوه.

وهكذا نجد الإمام أحمد يعيش زاهدا وفيا لسنة رسول الله ﷺ، ولعلم أصحابه وتابعيه، وكان زاهدا لا يهمه إلا الاقتداء برسول الله ﷺ، وكان يستهين بكل عذاب في سبيل أن يستمسك بسنة النبي ﷺ، ولا يعرض عنها، بل يستمر في الأخذ بمنهاج السلف الصالح، يترك به محنا، ويستعذب أشد العذاب في سبيل التمسك

بقيم السلف الصالح، يترك القول فيما تركوا القول فيه، ويتكلم فيما تكلموا بكلامهم فلا يخرج عنهم قيد أنملة، حتى صار بحق إمام دار الإسلام، يقصده العلماء من مشارق الأرض ومغاربها طالبين الحديث والفقه عليه، واشتهر في ذلك المجد العلمي مع عيشه الفقير، فازداد وبذلك قدرا وعلوا ومنزلة بين الناس، ولذلك لما توفي سنة ٢٤٠هـ شيعته بغداد كلها تقديرا لعلمه وزهده، وتكريما لسنة رسول الله، وعلم السلف والصالح الذي كان يجمعه ذلك الإمام الجليل، وترك لنا مسنده الجامع للأحاديث النبوية موسوعة لكلام خاتم المرسلين ﷺ، وذكراه العطرة.

أبو نصر الفارابي (٢٦٠ – ٣٣٩هـ)

المعلم الثاني.. أول الفلاسفة المسلمين

هو أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان الفارابي ، ولد بغاراب في أطراف فارس مما يلي بلاد الترك حوالي سنة ٢٦٠ هـ/ ٨٧٣ م فنشأ بها وتعلم التركية والفارسية والعربية والسريانية، ثم انتقل إلى بغداد فدرس علوم الفلسفة على أبش شير متي بن يونس، وكان يمتاز عن غيره بحسب العبارة، ووضوح الفكرة الوضوح الخالي من الغموض، فتأثر به الفارابي في تأليفه، ولهذا يمتاز على تأليف الكندي بوضوح المعاني، وقد رحل من بغداد إلى حران، فتلقي على يوحنا بن حيلان طرفا من المنطق، ثم رجع إلى بغداد فأعاد بنفسه دراسة علوم الفلسفة وتناول كتب أرسطو بالدرس، حتى نبغ في استخراج معانيها والوقوف علي أغراضها، ولم يصل إلى هذا إلا بعد دراسة طويلة فيها، وتكرار لقراءتها حتى يقال عنه أنه قرأ كتاب "النفس" لأرسطو مائة مرة، ونقل عنه أنه قال: "قرأت كتاب السماع الطبيعي لأرسطو الحكيم أربعين مرة، ورأيي أني محتاج إلى معاودة قراءته"، وهذا الكتاب يبحث في الموجودات الطبيعية بالإجمال، وسمي بهذا لأن أرسطو ألقاه دروسا فدونه تلاميذه.

ثم رحل الفارابي في آخر حياته إلى حلب قاصدا سيف الدولة الحمداني فدخل عليه في مجلسه وهو حافل بالعلماء والأدباء والشعراء، فأخذ يكلمهم في كل فن حتى سكتوا عن الكلام، وأخذوا يكتبون ما يقول، فعظم عن عين سيف الدولة،

وأراد أن يجري عليه رزقا كبيرا من بيت المال، فاكتفى منه بأربعة دراهم في اليوم، لأنه كان يؤثر عيشة التقشف والزهد، ثم قصد دمشق فأقام فيها مكتفيا بذلك الراتب وكان لا يرى فيها إلا عند مجتمع ماء أو رياضة، فيتناوله فيها المنشغلون عليه، ويؤلف فيه كتبه إلى وفاته ٣٣٩هـ – ٩٥٠م

والفارابي –كما يذكر المؤرخون – صاحب الفضل الأول على الفلسفة، يعد أول فلاسفة الإسلام الحقيقيين، وكان يلقب بالمعلم الثاني، كما كان أرسطو يلقب بالمعلم الأول.. وقد عاش الفارابي عيشة الزهاد حياته كلها، فلم يقتن مالا ولا اتخذ صاحبة ولا ولدا، وعن مكانته الفلسفية فيقولون: "الحكماء أربعة: اثنان قبل الإسلام وهما أفلاطون وأرسطو، واثنان في الإسلام هما: أبو النصر الفارابي وأبو علي بن سينا"

وكما لقب أفلاطون بالحكيم الإلهي، وأرسطو بالمعلم الأول لقب الفارابي بالمعلم الثاني، وابن سينا بالشيخ الرئيس.

ويقول البروفيسور "كارادوفو" في ترجمته للفارابي بدائرة المعارف الإسلامية : "ومذهب الفارابي هو مذهب الفلاسفة – أعني – الأفلاطونية الجديدة الإسلامية، الذي بدأه من قبله الكندي، ووجد في كتب ابن سينا من بعده أكمل عبارة عنه، وهذه العبارة في جملتها تبين مكانة كل من الكندي والفارابي وابن سينا في الفلسفة الإسلامية، وإن كانت تفاصيلها لا تخلو من نقد"

تفسير كتب أرسطو

ولا ينتهي فضل الفارابي عند تفسير كتب أرسطو وتصحيح تراجمها، والتمهيد بذلك للنهضة الفلسفية في الإسلام، بل تعدى ذلك إلى الاجتهاد في العلوم السياسية بكتابه الشهير "المدينة الفاضلة" وكذلك هو أول من عني بإحصاء العلوم وتربيتها، العلوم التي كانت معاصرة له وسابقة عليه في كتابة "إحصاء العلوم" ومن أجل ذلك يعتبر الباحثون أن أبا نصر أول من وضع في العالم نواة دوائر المعارف.. ولئن كانت الأجيال تهتف باسم الفارابي منذ زمن طويل في الشرق والغرب، فإنه استحق ذلك بما وهب حياته لخدمة العلم والحكمة، وبما ترك من أثر في تاريخ الفكر البشري وفي تاريخ المثل العليا للحياة الفاضلة.. وكان الفارابي أول من عني من فلاسفة الإسلام بإصلاح طريقة الحكم في كتابة "آراء أهل المدينة الفاضلة" فدخل بهذا فيمن عني بإصلاح الحكم في الإسلام من ناحية ومن أصحاب المدن الفاضلة عبر التاريخ من ناحية أخري، حيث لا نذكر المدن الفاضلة إلا ويذكر الفارابي، وإن كان قد تأثر في كتابه بجمهورية أفلاطون، فأتى مجافيا للبيئة الإسلامية، ولم يكن له أثر بين المسلمين.

وقد ذكر الفارابي في هذا الكتاب أن المثل الأعلى للحكومة هو الذي يكون الحاكم فيه فيلسوفا، وأن اجتماع الناس جاء بالضرورة، وهم الذين يضعون أنفسهم تحت إرادة فرد يمثل الحكومة، أفضل أنواع الحكومات ما كان متصلا بهيئة دينية، لتكون الحكومة مسيطرة على الأمور الدينية والدنيوية للأمة، والمدنية التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة في الحقيقة هي المدينة

الفاضلة، والمدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح الذي تتعاون أعضاؤه كلها على إتمام سعادته، وحسب هذا التفسير العضوي قسم المدينة إلى أقسام: رئيس وفلاسفة وعامة، والإسلام لا تهمه هذه الفلسفة في إثبات الحاجة إلى رئيس للمدينة الفاضلة، ولا يلزم فيه أن يكون رئيسا فيلسوفا أو أفضل إنسان فيها، ولا يلزم فيه التقسيم الطبقي، بل رئيس المدينة فيه من يرضاه الناس ومن لم يكن فيلسوفا، لأن الناس في الإسلام –كما يعلم الجميع– سواسية كأسنان المشط، وبهذا يكون للفارابي تجديدان: تجديد في إصلاح الحكم على حسب تأثره بالفلسفة، وتجديد وتهذيب ما ترجم قبله من علوم الفلسفة وترتيبه كتابه "إحصاء العلوم" والتعريف بأغراضه هو كتاب عظيم كما يعترف السير "لوي ماسينون" المستشرق في دائرة المعارف الإسلامية، وهو لم يسبق إليه أحد، ويعد أول دائرة معارف علمية.

وإنه لم يكن ينظر إلى الفلسفة نظرة المقلد، بل كان يعاملها معاملة المجتهد، وكان يدعو إلى الحقيقة ولو خالفت مذهب أرسطو، وهو أعظم فلاسفة اليونان، ولكن الفارابي صاحب الفضل في فتح باب الاجتهاد في الفلسفة الإسلامية، ومهد لمن بعده الطريق للابتكار فيها، فكان الشيخ الرئيس ابن سينا يقول: "لولا الفارابي لضللت الطريق إلى أرسطو".

ابن النفيس (٦٠٧ – ٦٩٦ هـ)

مكتشف الدورة الدموية

كان اكتشاف الدورة الدموية نقطة تحول أساسية في تاريخ الطب، وقد تم ذلك لأول مرة في القرن الثالث عشر على يد الطبيب العربي "ابن النفيس" قبل علماء أوروبا بثلاثة قرون، ولد علاء الدين أبو الحسن القرشي الشهير بابن النفيس في دمشق عام – ١٢١٠م (٦٠٧هـ) ودرس الطب على يد مهذب الدين الدخوار ثم رحل إلى القاهرة وتولى إدارة أكبر مستشفياتها "البيمارستان المنصوري" الذي أنشأه قلاوون عام ١٢٨١ (٦٨٠هـ) وصار عميدا لمدرسة الطب فيه ورجع فجأة إلى الشام وتوفي عام ١٢٨٨ (٦٨٧هـ) ولم يكن متزوجا وأوقف داره الجميلة ومكتبته الكبيرة بالقاهرة على المستشفى الكبير وبرع ابن النفيس في التشريح وراجع ما جاء في كتاب القانون لابن سيناء، وكان يفضل أبقراط على جالينوس، وعارض ما أشاعه جالينوس من أن الدم ينتقل من الجانب الأيمن بالقلب إلى الجانب الأيسر عن طريق ثقوب دقيقة لا تراها العين، فبين ابن النفيس في كتابه "شرح تشريح القانون" أن الدم ينتقل من الجانب الأيمن للقلب إلى الرئتين أولا هناك يخالط الهواء في الحويصلات الرئوية الدقيقة، فيصلح أمره ويعود إلى الجانب الأيسر من القلب بعد ذلك، فيعتبر ابن النفيس أول مكتشف للدورة الدموية الصغرى، وأول من عرف وظائف الرئتين والأوعية الدموية التي تصلها بالقلب، والشعيرات الدموية التي بين الشرايين والأوردة الرئوية، وهو الأصل الذي ترجم عنه حرفيا، ونسبه لنفسه بعد ذلك

ثلاثة قرون ميشيل سيرفيه في إيطاليا والأصل الذي تجاهله وليم هارفي الإنجليزي عندما أعلن اكتشاف الدورة الدموية عام ١٦٢٨، ولابن النفيس مؤلفات كثيرة في الطب أهمها "شرح تشريح القانون" و"الكتاب الشامل في الطب" الذي أتم فيه جزءا ولم تمنعه مشاغل الطبيب العالم المسئول عن التفقه في اللغة والفلسفة وتأليف كتاب سماه "الرجل الكامل" رد فيه على رسالة حي بن يقظان لابن سيناء.

ابن بطوطة : (٧٠٣هـ – ٧٧٧هـ)

الرحالة الأمين صاحب " تحفة النظار"

هو الرحالة المشهور وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الطنجي، ولد في مدينة طنجة ببلاد مراكش (المغرب) في ١٧ رجب عام ٧٠٣هـ (٢٤ فبراير ١٣٠٤ م) وقد نشأ في بسطة من العيش، وسعة من الرزق، ثم خرج من مدينة طنجة وهو في الثانية والعشرين من عمره قاصدا الحجاز لأداء فريضة الحج، فمر بالجزائر وتونس وطرابلس المغرب ومصر، ثم رحل إلى فلسطين ولبنان وسوريا والحجاز، فحج حجته الأولى، ومن مكة سافر إلى بلاد العراق والأناضول، ثم عاد إلى مكة حيث حج إلى بيت الله الحرام للمرة الثانية، وظل بمكة سنتين ثم غادرها إلى اليمن، وعبر البحر إلى شرق أفريقيا، ثم عاد منها زائرا لعمان والبحرين والإحساء، ثم عاد إلى مكة ليؤدي فريضة الحج للمرة الثالثة، ثم خرج منها إلى بلاد الهند مارا بخوارزم وخراسان وتركستان وأفغانستان وكابول ثم السند، وتولى هنالك القضاء في دلهي على المذهب المالكي للسلطان محمد شاه .

ولما أراد السلطان محمد أن يرسل وفدا إلى الصين خرج ابن بطوطة فيه، وفي طريق عودته مر بجزيرة سرنديب وجزر الهند والصين، ومن هناك عاد إلى بلاد العرب عن طريق سومطرة عام ١٣٤٧م، فزار بلاد العجم والعراق وسوريا وفلسطين مرة أخرى، ليؤدي فريضة الحج للمرة الرابعة، وعندما كان عائدا اشتاق إلى العودة

لمسقط رأسه، فمر بمصر وتونس والجزائر ومراكش ووصل فاس عام **١٣٤٩**م... ولم يطل به المقام في وطنه حتى استأنف رحلاته إلى بلاد الأندلس (أسبانيا) عابرا مضيق جبل طارق إلى غرناطة، ثم عاد مرة ثانية إلى مدينة فاس، وألقي فيها عصا التسيار (بتعبير مؤرخينا القدامى)

رحلة أفريقية

وعاوده الحنين مرة أخرى إلى السفر، فغادر وطنه إلى السودان ومر بمالي وزائير وغيرها حتى إذا ما انتهى من التجوال عاد إلى فاس مرة أخرى .. وقد عانى ابن بطوطة في رحلاته كثيرا من الصعاب والمشقات وأصيب ببعض الأمراض، وفي ذلك يقول في الصفحات الأولى من كتابه عن رحلاته: "وجرتنا للسير، وواصلنا الجد، وأصابتني الحمى، فكنت أشد نفسي بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف".

كان ابن بطوطة شديد الحساسية، وكان دائم الشعور بالانقباض والحزن لوحدته القاسية، وكلها كانت باختياره، ويقول في مقدمة رحلته أنه ترك والديه، فتحمل لبعدهما وصبر، كما لقي من الفراق المر نصبا.. وعندما علم بوفاة والدته في أثناء غيبته في رحلته الأولى تملكه الحزن، واستبد به الأسى، وانكفأ على قبرها يبكيها بحرقة وحسرة، وقد دوَّن رحلاته في كتاب أسماه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" فأملى فيه ما شاهده في رحلاته من البلدان وما تذكره من نوادر الأخبار ومن قابله من الملوك والعلماء والأولياء وأملى من ذلك فيه الخواطر والتعليقات القيمة

الرحالة الأمين

كشفت هذه الرحلات عن أسرار كثير من البلاد التي زارها ابن بطوطة، إذ يعد أول من ذكر شيئا عن استعمال ورق النقد في الصين، وعن استخدام الفحم الحجري، وكان صادقا في أغلب أوصافه حتى أن المستشرقين أطلقوا عليه "الرحالة الأمين".. وأفاد ابن بطوطة علم الجغرافيا بما ذكره من أوصاف للبيئة الطبيعية والتضاريس والجغرافيا البشرية، والسكان والعادات والتقاليد أفادت علم الاجتماع والأنثربولوجيا (علم الإنسان) في العصر الحديث

قال في وصف طبائع المصريين: "وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو، شاهدت بها مرة فرجة وبسبب براء (شفاء) الملك الناصر من كسر أصاب يده، فزين كل أهل السوق سوقهم، وعلقوا بحوانيتهم (محلاتهم) الحلل والحلي، وثياب الحرير، وبقوا على ذلك أياما"..

وفي وصف الإسكندرية وعجائبها قال: "ومن غرائب الإسكندرية عمود الرخام الهائل الذي خارجها المسمي "بعمود السواري" وهو متوسط في غابة نخل.. وهو قطعة واحدة محكمة النحت وقد أقيم على قواعد حجارة مربعة، أمثال الدكاكين العظيمة، ولا يعرف كيفية وضعه هنالك ولا يتحقق من وضعه".

ووصف ابن بطوطة عادات السوريين في مدينة دمشق في شهر رمضان المبارك فقال: "من فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده البتة، فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء فإنه يدعو أصحابة الفقراء يفطرون والبادية

فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو في مسجد ويأتي كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا"

هنود يحترقون

ووصف ابن بطوطة بعض عادات أهل الهند مثل إحراق النساء؛ فقال "رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض أصحابنا فسألتهم: ما الخبز فأخبروني بأن أحد الهنود مات، وأشعلت النار لحرقه، وامرأته تحرق نفسها معه، ولما احترقا جاء أصحابي وأخبروني أنها عانقت الميت حتى احترقت معه، ثم اتفق بعد ذلك أن كنت في مدينة قتل منها سبعة من الهنود، وكان لثلاثة منهم زوجات فاتفقن على إحراق أنفسهن. وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مرغوب واجب، ولكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا بذلك ونسبوا إلى الوفاء، من لم تحرق نفسها لبست الثياب الخشنة، وأقامت عند أهلها بائسة لعدم وفائها، ولكنها لا تكره على إحراق نفسها"..

وعلي هذا المنوال يمضي ابن بطوطة وصف رحلاته الشيقة، على أن رحلاته ظلت موضع التفات كير من المستشرقين والباحثين فترة طويلة وأشاد بها الكثير من الرحَّالة الغربيين لسبقها.

وفي عام ١٣٧٨م توفي ابن بطوطة بمراكش مسقط رأسه عن عمر يناهز الرابعة والسبعين.

ابن تيمية: (٦٦١ – ٧٢٨هـ)

دعوة إصلاحية تأخرت كثيرا

هو تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي الحبشي، ولد بحرَّان سنة ٦٦١هـ/ ١٢٩٢، ثم قدم به والده وأهله إلى دمشق وهو صغير، فسمع الحديث من جمع كثير منهم زينب بنت مكي، ثم اشتغل بغير الحديث من العلوم، وكان ذكيا قوي الحفظ لا يسمع شيئا إلا حفظه، ولم يزل يشتغل بطلب العلم حتى صار إماما من التفسير وما يتعلق به، عارفا بالفقه على اختلاف مذاهبه حتى قيل أنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها، عالما في الأصول والفروع والنحو واللغة وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية، وقد بلغ هذا كله وعمره نحو ثلاثين عاما.

وكان ابن تيميه يمتاز على غيره من علماء هذا القرن بأنه يجمع بين العلم والعمل، وجاهد في هذا الإصلاح بقدر ما هيأه له نشوؤه في بيئة حديث وفقه حنبلي ويهتم بأمر المسلمين ويجتهد في إحياء ما مات من نخوتهم بعد نكبتهم بالتتار، فله في ذلك كله مقام يمتاز به على علماء عصره ممن ركنوا إلى الجمود.. وقد وردت الأخبار إلى دمشق في سنة ٧٠٠هـ بأن التتار يقصدون الشام، وأنهم عازمون على دخول مصر، فأدرك أهل دمشق من الخوف ما أدركهم، وكان ابن تيميه هو الذي يثبتهم ويعدهم بالنصر، وقد اختاروه ليسافر إلى مصر ويستحث السلطان على

الخروج بعسكره إلى الشام، وكان سلطان مصر والشام في ذلك الوقت هو الناصر محمد بن قلاوون، فلم يزل به ابن تيمية حتى أرسل عساكره إلى الشام، فرجع ملك التتار عن قصده، لما رأي من ضعف جيشه وقلة عددهم، ومن حسن استعداد المسلمين للقائهم، وكان هذا ونحوه مما جعل لابن تيميه منزلة كبرى في نفوس العامة وكان يشاركهم في هذا بعض من الخاصة.

جهاد فكري

ولكن جهاد ابن تيمية الأكبر كان مع الجامدين من الصوفية الأشعرية والفقهاء فكان يكثر من الزراية بطرق الصوفية، وينكر علي محيي الدين بن عربي، وغيرهم من رجالهم، وكان ينكر في هذا ما يفعلونه هم وغيرهم من زيارة القبور للاستغاثة بأصحابها في قضاء الحاجات ولا يفرق في هذا بين ولي ونبي، فثار عليه المتصوفة وعلى رأسهم ابن عطاء الله السكندري صاحب الحكم المشهورة، وكان ابن تيمية في ذلك الوقت مقيما بمصر، فادعوا عليه بأنه يطعن في شيوخ الصوفية، وينكر الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم، فرأى أهل الدولة أن يسكتوا هذه الفتنة بتخييره بين الانتقال إلى دمشق من الإسكندرية أو الحبس، فاختار الحبس فاعتقل في سجن بحارة الديلم سنة ٧٠٧هـ، وكان الناس يقصدونه في سجنه فيعظمهم ويفتيهم ويعلمهم، فلما تولى الظاهر بيبرس بعد عزل الناصر محمد بن قلاوون نقلة إلى سجن الإسكندرية، لأنه كان من أشد خصومه، وكان الناس يقصدونه فيه للاستفادة منه أيضا، فلما عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى الحكم سنة ٧٠٩هـ أطلقة من سجنه،

وجمعه هو وخصومه فأصلح بينهم، وقد شرطوا عليه في صلحهم ألا يعود إلى إنكار الاستغاثة بالنبي.

محنة الاعتقال

وكذلك كان أمره مع الجامدين من الفقهاء، لأنه كان يرى فتح باب الاجتهاد في الفقه، ويفتي بخلاف المذاهب الأربعة التي وقع إجماعهم عليها، كما أفتى بأن الطلاق الثلاث، من غير تخلل رجعة يقع طلقة واحدة، وقد حبس على هذه الفتوى سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م وكان في ذلك الوقت مقيما بدمشق، فمكث محبوسا بقلعتها خمسة أشهر وثمانية عشر يوما، ثم ورد كتاب من السلطان بإخراجه من الحبس فمكث بدمشق يشتغل بالتعليم والتأليف إلى أن وجدت فتوى بخطه في منع السفر وإعمال الكرائب (البهائم) إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين، فثار عليه العلماء من أجلها، وقد ورد كتاب السلطان باعتقاله سنة ٧٢٦هـ، فاعتقل هو وجماعة من تلامذته فيهم ابن القيم الجوزية، وقد مكث هذه المرة في سجنه إلى أن توفي سنة ٧٢٨هـ ١٣٢٧م ويذكر جولد تسيهر في كتابه "عقيدة الإسلام وشريعة" أن ابن تيمية لم يصب حظا من النجاح، بعد أن تقاذفنه لمحاكم الدينية مات في السجن سنة ١٣٢٧م ، وكان هم الكاتبين بعد وفاته أن يبحثوا هل كان ملحدا أم كان من الأتقياء المدافعين عن السنة.

ويقول كرد علي بك في كتاب "خطط الشام": "وقد أشبه ابن تيمية في دعوته في الإسلام بمارتن لوثر صاحب المذهب الإنجيلي في النصرانية، بيد أن مصلح النصرانية نجح في دعوته، ومصلح الإسلام أخفق ويا للأسف!!"

وابن تيمية في رأي الشيخ مصطفي عبد الرازق، لم يخفق في دعوته الإصلاحية وإن أبطأ نجاحه قرونا، ولهذا الإبطاء عندي سبب هو أن عصر الرجل لم يدرك كنه مذهبه، فعني العلماء يومئذ بما في فتاوى ابن تيمية من المسائل الجزئية، وعنوا بعنف أسلوبه في نقد العلماء وكبار المؤلفين، وأخذهو يجري في تيارهم فيعنى بالجزئيات والدفاع عن آرائه فيها حتى أصبحت أصل مذاهب ابن تيمية يسهل استخلاصها من بين المؤلفات الضخمة والرسائل الكثيرة والمؤلفات الجدلية في أمور فرعية ومسائل جزئية، ولم يخطئ من قال: "ولو لم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب إلا تلميذه شمس الدين بن قيم الجوزية صاحب التصانيف النافعة الأسندة التي انتفع بها الموافق والمخالف لكان غاية في الدلالة على عظمة منزلته.

وابن القيم الجوزية هو الذي فهم من دون علماء عصره مذهب أستاذه ومهده للأجيال من بعده.. كان ابن تيمية كما قلت يعيش في عصر اضطراب وقلق يشمل بلاد الإسلام، وكان المسلمون عرضة لغارات المهاجمين لهم من الخارج وكانوا عرضة للفرقة والشقاق بين أهل المذاهب والفرق منهم.. لذلك وجه ابن تيمية همه إلى ما يجمع شمل المسلمين ويدفع عنهم الفرقة، وكان ذلك عنده لا يتم إلا باتباع الكتاب والسنة.

وتوفي الشيخ ليلة عشرين من ذي القعدة ودفن وقت العصر أو قبله بقليل، وصلي عليه بجامع دمشق وصار يضرب المثل بعدد من حضر جنازته، وأقل ما قيل في عددهم خمسون ألفا، وكان كما ذكرنا بعد سجنه وفي معتقله، فترك لنا العديد من الكتابات التي لا تحصي أهمها التوحيد، ودرء تعارض العقل والنقل.

ابن جبير (٥٤٠ – ٦١٤)

رحالة يكتب بلغة الأدب

هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير ابن سعيد الكتاني الأندلسي، ولد بمدينة "بلنسية" في عام ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥م واجتهد في تحصيل العلوم حتى أصبح أديبا، وكان يملك حسا مرهفا يكتب الشعر في كل الأغراض، وكان فوق ذلك كله رحالة مشهور، لم يقم برحلة واحدة بل بثلاث رحلات: الأولى من الأندلس إلى المشرق، والثانية إلى بيت المقدس من غرناطة، والثالثة من بيت المقدس إلى مصر.

وكانت بواعث رحلته الأولى دينية، ذلك أنه خرج حاجا تكفيرا عن معصية له وقع فيها –كما يقول المؤرخون – فباع ملكا له تزود به، ورحل قاصدا بيت الله الحرام، وصاحب ابن جبير في هذه الرحلة "أبو جعفر أحمد بن حسان الصناعي" وكان شغوفا بتحصيل علم الطب. وزار ابن جبير في رحلته مصر والشام والحجاز وصقلية، وتفقد آثارها ومساجدها، ودواوينها، ودرس أحوالها، وذكر ما شاهده وما عاناه، ووصف حال مصر في عهد صلاح الدين الأيوبي والمسجد الأقصى، والجامع الأموي والساعة العجيبة فيه.

مناقب صلاح الدين

وتعرض عند الحديث عن مناقب صلاح الدين الأيوبي، لوصف القناطر التي شرع في بنائها في غرب مصر، ووصف الأهرامات، وأفاض في وصف مشاهد أهل

البيت النبوي، ومشاهد بعض أصحاب النبي ﷺ ، ومشاهد الأئمة والعلماء والزهاد ووصف الأراضي المقدسة.. ثم رحل إلى العراق بغداد مدينة السلام وعلمائها وبقية مدن العراق ثم وصل إلى دمشق وأيد قول القائلين فيها: "إن كانت جنه الله في الأرض فدمشق لاشك منها" وصور حالة المسلمين أيام الحروب الصليبية ووصف صقيلة وعرض لها بنظره الناقل للعادات والتقاليد كما هي حينا والمنتقد لها على أسس إسلامية حينا آخر.

وكان كتاب "رحلات ابن جبير" من أهم ما كتب بلغة أدبية في أدب الرحلات العربي، وكان من أوائل الكتب التي تتناول المظاهر والثقافات في بلدان الشرق والغرب، وأفاد منه منظرو أدب الرحلات بشكل كبير، وقد طبعت رحلات ابن جبير للمرة الأولى في "ليرن" عام ١٨٥٢م مع مقدمة يشير فيها المستشرق في هذه الرحلات رغم الأدوات البدائية التي كانت موجودة في عصره، وسبقه من هذه الناحية ثم أعيد طبعها في لندن عام ١٩٠٧، بعد أن نفتحه المستشرق (دي جوية) وحقق المستشرق أماري الجزء الخاص بصقلية وترجمه إلى الفرنسية ونشره في المجلة الآسيوية في أعوام ١٨٤٠– ١٨٤٦

ونشر الكتاب بالعربية في أوائل هذا القرن، ثم في أوائل النصف الثاني منه عام ١٩٥٥م، وتوفي ابن جبير في الإسكندرية عام (٦١٤هـ/ ١٢١٧) مخلفا لنا ذلك الأثر المعروف برحلات ابن جبير، ومن نصوص كتابه وصفه لحال المسيحيين في جزيرة صقلية، حيث صور أعيادهم الدينية تصوير شاهد عيان بمنتهى الدقة ووصف الاحتفال بليلة رؤية هلال رمضان بالإسكندرية أثناء إقامته فيها.

ابن حجر العسقلاني (٧٧٣ – ٨٥٣هـ)

أمير المؤمنين في الحديث

ولد أحمد بن علي بن حجر في الثاني والعشرين من شهر شعبان سنة ٧٧٣هـ بالقاهرة بمنزل على شاطئ النيل بمصر القديمة، قريب من المكان المعروف بدار النحاس وانتقل منها إلى القاهرة قبل تمام القرن حين تزوج، وأصل أجداده من عسقلان، انتقلوا منها إلى مصر سنة ٥٨٧هـ، إبان الحروب الصليبية بعكا، وعمَّر أحمد بن علي طويلا حيث عاش ثمانين عاما قضاها في طلب العلم والدرس وأنفقها بين التدريس والتأليف، وبين الإفتاء ورياسة القضاء، وقد وهبه الله خير ما يوهب في الحياة: بسطة في العلم، وسعة في الرزق، وسلامة في البدن، وطولا في العمر وتفقها في الدين، وعلوا في المكانة فكان رأس العلماء، وإليه انتهت رئاسة علم الحديث في العالم العربي بأسره، وصفوه بأنه أمير المؤمنين في الحديث فلم يكن في عصره حافظ مثله.

وقد اشتهرت أسرة ابن حجر بالعلم والفضل والأدب، فأبوه نور الدين بن علي بن محمد كان من علية القوم، وعالما يتصف بالعقل والمعرفة اشتغل بالفقه واللغة العربية ومهر فيهما، ونشأ ابن حجر يتيما، ماتت أمه وهو طفل وتوفي أبوه بعد ذلك في رجب من عام ٧٧٧هـ وهو حديث السن، وكما يقول عن نفسه: "وتركني ولم

أكمل أربع سنين، وأنا الآن أعقله كالذي يتخيل الشئ ولا يتحققه" ودخل الكتاب حين أكمل خمس سنين وهو في كنف تاجر صديق لأبيه وأوصاه به حين توفاه الله.

وتخرج من الكتاب وله تسع سنين وقد وهبه الله قوة الذكاء وسرعة الفهم وتوقد الحفظ، فكان يحتفظ في كل يوم نصف جزء من القرآن الكريم، كما حفظ سورة مريم في يوم واحد.

ثم اتفق أن أحد أوصيائه "زكي الدين الخاروبي"، كبير التجار في مصر قد تهيأ للحج، فاستصحب معه الصبي أحمد في سنة ٧٨٤ ولم يكن له من يكفله، فحجا وجاورا، وهناك سمع ابن حجر غالب صحيح البخاري سنة ٧٨٥هـ من مسند الحجاز عفيف الدين النشاروى وفي أثناء وجوده بمكة في نفس السنة اجتمع بالقاضي جمال الدين بن ظهيرة وبحث عليه في كتاب "عمدة الأحكام" للحافظ عبد الغني المقدسي، ثم عاد مع وصية سنة ٧٨٦ إلى مصر فأخذ في حفظ كتب من مختصرات العلوم ولازم أحد أوصيائه وهو "شمس الدين بن القطان"، وفي أثناء ذلك قرأ على الصدر سليمان بن عبد الناصر الاسبكتي شيئا من العلم، كما سمع صحيح البخاري من المسند نجم الدين عبد الرحيم بن رزين، وصلاح الدين الزفتاوي

ثم درس التاريخ، وظل يوالي النظر في التواريخ فعلق بذهنه كثيرا من أحوال الرواة ، وقد أعانه هذا بعد ذلك، فنصف الكتب القيمة في تراجم الرجال وأعيان الزمان ك (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) و"تراجم رجال المائة التاسعة" و"رفع الإصر عن قضاة مصر"، وكتاب "الإصابة في تمييز الصحابة"، و"تهذيب التهذيب"،

و"إنباء الغمر بأبناء العمر"، وقد جعله تاريخا لحوادث عصره من عاصرهم من الملوك والأمراء والعلماء.

وفي سنة ٧٩٤ عني ابن حجر بالأدب واهتم به، ونظر في فنونه، وصار شاعرا كما كان أبوه فنظم الشعر وأجاده وكانت بينه وبين أدباء عصره مكاتبات ورسائل يمدحونه بالشعر حينا، ويرد عليهم بالنثر والشعر حينا، وله ديوان شعر كبير وآخر صغير مختصر صغيرة منه يُسمى "ضوء الشهاب"

عناية الحديث

ولكن عنايته الأكبر كانت بالحديث النبوي فشغف به وأقبل عليه، ووقف حياته على دراسته وأكثر الرحلة في طلبه، وإذا كان قد سمع كثيرا من الحديث من قبل، فإنه لم يعن بطلبه ولم يقبل عليه بكليته إلا بعد سنة ٧٩٦، فإنه كتب بخط يده رفع الحجاب وفتح الباب، وأقبل العزم المصمم على التحصيل وفق للهداية إلى سواء السبيل؛ فطاف من أجله على الشيوخ وطوف في المدن، وأكثر من المسموع جدا ونقل من الكتب الكبار شيئا كثيرا، واجتمع بأستاذين كبيرين هما: "الحافظ زين الدين عبد الرحيم ابن الحسين العراقي"، و"الشيخ نور الدين الهيثمي". وكان الحافظ العراقي، مشهورا بالفقه، وأحفظ الناس لمذهب الشافعي ولاسيما لنصوصه مع معرفة تامة بالتفسير والحديث واللغة العربية، فاجتمع به في شهر رمضان سنة ٧٩٦ هـ فلازمه عشرة سنين تخللت رحلاته في أثنائها إلى الشام وغيرها، فقرأ عليه ألفيته التي نظمها في علوم الحديث لابن الصلاح وشرحها له بحثا وانتهي من ذلك في رمضان سنة ٧٩٨ هـ بمنزل الحافظ العراقي بجزيرة الفيل على شاطئ النيل، كما قرأ عليه

غير ذلك من الكتب الكبار والكثير من الإملاءات.. وعلى هذا الشيخ تخرج ابن حجر العسقلاني، وهو أول من أذن له في التدريس في علوم الحديث ولقبه بالحافظ وعظَّمه جدا ونوه بذكره.

وهكذا يبدو ابن حجر وقد أقبل على الحديث وقصر عليه كل عنايته فكان حريصا على استماع الحديث وكتبه ثم توجه بعد ذلك إلى الفقه وواصل رحلاته في طلب العلم فمن الإسكندرية إلى الحجاز إلى الشام يجمع الأحاديث ويستمع إلى المسندين.

وهكذا نرى ابن حجر يجوب الأقطار، يطوي الآفاق ويطوف في المدن طالبا للحديث والفقه وعلوم الدين، لا يثنيه عن ذلك عائق، ولا يقعد به تقدم السن، صبورا على السفر، قوي الاحتمال على مشقة السير، يصفه تلميذه البقاعي في رحلة من رحلاته، وكان الإمام ابن حجر قد جاوز الثانية والستين فيقول أنه حيث كان ينزل غيره إلى النوم والراحة ولا يقطع قيام ثلث الليل والأخير، مع جهد ذلك السفر العنيف، وقد ترك لنا العسقلاني عددا كبيرا من المؤلفات، فقد بدأ في التأليف منذ عهد مبكر من حياته وهو ابن عشرين عاما، وكان لابد لهذا الذهن المتقد والعقل الراجع، وهذه العقلية الواعية أن يظهر أثرها في العلم وأن تؤتي ثمارها في عهد مبكر وعلي خير ما يرجى.

وقد ألف ما يقرب من مائة وخمسين كتابا بين علوم الحديث والأدب والتاريخ وغير ذلك ونال بها الحظ والقبول ولاسيما كتاب "فتح الباري بشرح البخاري"، فقد

استدعى طلبه الملوك والرؤساء، وبيع بنحو تلميذه دينار، وعني بتحصيل كتبه الشيوخ.

وانتشرت أكثر مؤلفاته في حياته، وانتشرت فتاواه، وكثر الآخذون عنه حتى كان رؤوس العلماء ومن كل مذهب من تلامذته.

ومن مؤلفاته: "الاتفاق في فضائل القرآن"، و"لسان الميزان"، و"الكاف الشاف في تحرير أحاديث الكشاف"، و"الدراسة في منتخب أحاديث الهداية والإعلام بمن ولي مصر في الإسلام"، و"الخصال المكفرة للذنوب"، و"الأنوار بخصائص المختار"، و"بلوغ المرام بأدلة الأحكام"، "ونخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر"، وأشهر مؤلفات الإمام ابن حجر كتابه "فتح الباري في شرح صحيح البخاري"، وقد عني الأئمة والعلماء في مختلف البيئات الإسلامية بهذا الكتاب، وقد نهج الإمام ابن حجر طرق الحديث فيشرح بعضها بعضا، ويبين ما في كل طريق من صحة أو علة، ومن الألفاظ التي اختلف فيها رواة البخاري، ثم يأخذ كلام الشارح أولا فأول إلى عصره، فبيَّن صواب المصيب ووهم الواهم ومن أين جاءه ذلك الغلط.

وفي رجب من سنة ٨٤٢ هـ أذن الله لهذا الشرح القيم أن يكمل، وخلد ابن حجر همته في شرحه هذا الكتاب الخالد – الذي استغرق فيه خمسة وعشرين عاما كاملين – وقد احتملت القاهرة بختم صحيح البخاري احتفالا عظيما في يوم السبت الثاني من شعبان سنة ٨٤٢ هـ، وقد تناقل المؤرخون هذا الاحتفال بالذكر في أحداث السنة المذكورة، وقد شهد له العلماء جميعا بالسبق في هذا المجال.

وتولى ابن حجر عدة مناصب منها الخطابة بالجامع الأزهر سنة ٨١٩ هـ، ومنصب قاضي الشافعية الأكبر وقاضي القضاة بمصر أكثر من اثنين وعشرين عاما.. وفي عام ٨٥٣ توفي ابن حجر العسقلاني بالقاهرة ودفن في مقابر الغفير بمصر القديمة وترك لنا اسما لامعا في سماء علماء الإسلام والمحدثين وصحبه لقب أمير المؤمنين في الحديث.

ابن حزم (٣٨٤ – ٤٥٦ هـ)

وزير المستظهر.. أعلم أهل الأندلس

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بـ "ابن حزم الأندلسي"، ينتهي نسبه إلى يزيد مولى يزيد بن أبي سيفان بن حرب الأموي، وكان يزيد الذي ينتهي نسب ابن حزم إليه من الفرس، ولد ابن حزم بمدينة قرطبة سنة ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م، وكان أبوة وزيرا للمنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر ولابنه المظفر من بعده، فنشأ ابن حزم في بيت نباهة وجاه وعلم، وعني أبوة بتربيته وتثقيفه وثقافة واسعة تعده لشغل مركزه من بعده، فدرس علوم الدين والأدب والفلسفة، وكان شيخه في المنطق محمد بن الحسن المذحجي المعروف بابن الكناني.. وكان أديبا شاعرا طبيبا، فكان ابن حزم بذلك كله أجمع وأوعى أهل الأندلس جميعا بعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة، مع تعلمه اللغات الأجنبية، وتحليله بالآداب والمنطق والبلاغة، مع الصدق وحسن السيرة والدين..

وقد ذكروا أن الباجي أبا الوليد سليمان شارح الموطأ ناظره يوما فقال: "أنا أعظم منك همة في طلب العلم، لأنك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب، وطلبته وأنا ساهر بقنديل"، فقال له ابن حزم: "هذا كلام عليك لا لك، لأنّك طلبت العلم وأنْت في هذه الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، ولكني طلبته لا أرجو إلا نفعه دنيا وأخرى".

ونشأ ابن حزم شافعي المذهب، وكان جمهور أهل الأندلس على مذهب مالك، فنشأ مخالفا لهم في ذلك، وقد أغراه ذلك علي التوسع في علوم الحديث وفقهه فكان سببا في تركه تقليد الشافعي، واشتغاله باستنباط الحكام من الكتاب ولسنه حتى استقر به الأمر إلى اختيار مذهب أهل الظاهر، فزاد بهذا شذوذا على مذهب أهل الأندلس، لأن جمهور المسلمين في هذا القرن قد أخذوا تقليد المذاهب الأربعة المعروفة، وكانوا لا يرون حرجا في الانتقال من بعضها إلى بعض، لتقاربها في المأخذ وأصول الأحكام، بخلاف مظهر أهل الظاهر، لأنه ينكر الآخذ بالقياس، وهو من الأصول الأربعة التي اتفقت عليها المذاهب السابقة.

وكان ابن حزم قد آثر بعد أن انتهى من مرحلة الطلب أن يشغل بأمور الحكم كما كان أبوه من قبل، فتقلد الوزارة للمستظهر بالله عبد الرحمن، ثم للمعتمد بالله، ولكن ما كان عليه من ذلك الذكاء الحاد وتلك الثقافة الواسعة ومخالفته في المذهب لجمهور أهل عصره أكثر من حساده، وجعلهم يسعون في الكيد له بكل ما في وسعهم، فآثر أن يترك الاشتغال بالحكم، لينقطع إلى الاشتغال بالعلم، فاشتغل بالدرس والتأليف، وكان له في هذه الآثار لا تكاد توجد لغيره، حتى ذكر ابنه أبو رافع الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قرب ثمانين ألف ورقة.

مؤلفات عديدة

ومن مؤلفاته: كتاب "الإيصال إلى فهم الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والسنة والإجماع" أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين

ومن بعدهم من أئمة المسلمين في الفقه، والحجة لكل طائفة عليها، ومنها كتاب "الإحكام لأصول الأحكام"، وكتابه القيم "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، وكتاب "عن الإجماع ومسائله على أبواب الفقه"، وكتاب "في مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض"، وكتاب: "إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل، وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل"، وكان هذه الكتاب الركيزة الأساسية في علم مقارنه الأديان..

ومن كتبه القيمة "التقريب بحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العلمية والأمثلة الفقهية"، سلك فيه طريقا للإفهام والتوضيح بطريقة جديدة لإيضاح علم المنطق وأزال الظن الذي كان قد ألحق بالمنطق حتى قيل: "من تمنطق قد تزندق" وكتب في العشق والحب كتابا يعد من أروع ما كتبه العرب في هذا الأمر يدعي (طوق الحمامة في الألفة والإيلاف)

ولكن ابن حزم كان كثير الاختلاف مع العلماء المتقدمين، لا يكاد يسلم أحد من نقده اللاذع، حتى قال فيه أبو العباس بن العريف: "كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفي شقيقين، فنفرت عنه القلوب، واستهدف لفقهاء وقته، فاتفقوا على كراهيته، وردوا قوله وأجمعوا على تضليله وتشنيعه وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن القرب منه والأخذ عنه، فأقصته الملوك وشردته عن بلاده وامتدت أيدي العامة إلى كتبه حرقا وتمزيقا" وقد قال في ذلك:

وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس، بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل إن أنزل ويُدفن في قبري

ولكن عيبي أن مطلعي الغروب   وإن رجالا ضيعوني لصنيع

وإن زمانا لم أنل خصبه جدب!

ولم يزل ابن حزم مشردا ينتقل من مكان إلى مكان إلى أن انتهى إلى ليلة، فتوفي بها سنة ٤٥٦ هـ – ١٠٦٣ هـ، ولا يسع منصف إلا يقدر لابن حزم تلك الثقافة الواسعة التي تثقف بها في هذا القرن، وتحرره من الجهود على تقليد المذاهب الأربعة المشهورة، فكان ابن حزم أعلم علماء عصره ولكن لأن العلماء غرباء في أوطانهم فكانت هذه هي نهاية بن حزم الأندلسي.

ابن خلدون (٧٣٢ – ٨٠٨ هـ)

المفكر الاجتماعي.. ومؤرخ الحضارة البشرية

هو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن محمد عبد الرحمن بن خلدون الكندي الأندلسي التونسي، كانت أسرته من أهل الأندلس، ثم هاجرت منها إلي تونس التي ولد بها عام ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١م وكان أبوه عالما فقيها يقوم ببعض الوظائف في الدولة الحفصية، ثم اعتزلها واشتغل بدراسة العلوم الدينية واللغوية، فأخذ عليه ابنه القراءة والكتابة ومبادئ النحو والأدب والفقه، ثم أخذ على غيره من العلماء، ودرس علوم التفسير والحديث والنحو والمنطق والكلام والفلسفة والأدب والتاريخ.

ومات أبوه سنة ٧٤٩/ ١٣٤٨م، فسعى ولده حتى شغل منصب كاتب في العلامة في تلك الدولة، فكان يوقع على كل رسوم بختم السلطان، وقد تقلب بعد ذلك في وظائف الدولة، ولم يقصر نفسه على الدولة الحفصية، بل كان إذا م يجد مطمعه فيها يقصد دولة غيرها من دول المغرب، وينتقل بين تونس ومراكش وغرناطة بالأندلس، ويشتغل بالفتن والمؤامرات والحروب التي كانت قائمة بين ملوك تلك الدول، فيصل حينا إلى ما يطمح إليه من المناصب العالية في هذا الدول، ويخفق حينا حتى يقع في السجن.

وداعا للسياسة

ثم كره هذا الحياة السياسية المضطربة، فصرف نفسه عنها، وقصد تلمسان بأهله وأولاده سنة ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤م، فأقام هناك أربع سنين انقطع خلالها للمطالعة والتأليف والدرس، واتجهت نفسه إلى تدوين كتاب مبسوط في التاريخ، يذهب في ترتيبه مذهبا جديدا، فيرتب الكلام فيه على الدول، ويذكر فيه تاريخ كل دولة علة حدة، ويخالف بتلك الطريقة كل الطرق التي كانت متعبة قبله من ترتيب تاريخ البشر على السنين.

ثم أراد أن يجعل له مقدمة يدون فيها علما جديدا تكون منزلته في علم التاريخ منزلة المنطق من الفلسفة، أو منزلة علم أصول الفقه من الفقه، فاخترع بهذا علم الاجتماع، وامتاز بهذا الاختراع على من سبقه من مخترعي العلوم من المسلمين، لأن ما اخترعوه منها يدخل في دائرة العلوم الدينية والعربية، أما علم الاجتماع فيدخل في دائرة العلوم الإنسانية العالمية ويعترف العالم كله بفضله، وقد عرف علماء أوروبا لابن خلدون هذا الفضل، فصنفوه على أنه واضع أصول علم الاجتماع الحديث، والمفكر الاجتماعي الاقتصادي المبكر، ومؤرخ الحضارة البشرية بصفة عامة، والحضارة الإسلامية بصفة خاصة.

كتاب ومقدمه

وهذا الكتاب الذي يمتاز بهذه المقدمة العظيمة هو كتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، وقد اهتدى فيه ابن خلدون لوضع قواعد تنظيم العمران البشري (علم الاجتماع) ووضع أسس القراءة الموضوعية للتاريخ، وأشاد به "تويني" المؤرخ البريطاني المعاصر في نظريته في قيام وانهيار الحضارات.

وقد أتم ابن خلدون هذه المقدمة في تلمسان ثم رحل منها إلى تونس فأتم بها بقية الكتاب، وهناك ثارت منافسة بينه وبين المتزمتين بتونس من رجال الدين، منهم محمد بن عرفه "مفتي تونس" والذي أشاع عن أبن خلدون أشنع التهم، وكان يثير عليه العامة والسلطان، حتى سئم ابن خلدون الإقامة في تونس، ورحل منها إلى القاهرة، فاشتغل فيها بالتدريس بالجامع الأزهر، وقد أجرى عليه السلطان برقوق راتبا شهريا يكفيه، ثم عرض عليه منصب قضاة المالكية فقبله ابن خلدون، وسار فيه صالح السيرة وأعرض عن قبول شفاعات الأعيان ورجال الدولة، مما كان يسخطهم عليه، فيكيدون له إلى أن تمكنوا من عزله، ثم يعود إليه بعد العزل عنه، إلى أن مات المنصب عام ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥م

ومن ملامحه العلمية.. إلمامه في ذلك القرن بالحركة العلمية في العالم، فكان يتابع الكتب التي تترجم، أو يقرأها في لغتها حتى كان من ألمع المفكرين الذين مهدوا لعلم الاجتماع، فيوضع اسمه قبل إميل دوركاييم مؤسس علم الاجتماع الحديث في أوروبا.

ابن رشد الحفيد (٥٢٠ -٥٩٥ هـ)

إمام فلاسفة عصره

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد المعروف في أوروبا باسم(AVERROES) "أفيروس"، ولد عام ٥٢٠ هـ بمدينة قرطبة، وهي سوق العلم والعلماء في الأندلس في ذلك الحين، وكان له من أسرته العريقة تراث ضخم: فقد كان والده أبو القاسم أحمد قاضي قرطبة، وكان جده – ويعرف مثله بأبي الوليد بن رشد – قاضي القضاة في الأندلس كلها، وأمير الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة، وله فتاوى مخطوطة لا تزال محفوظة بمكتبة بباريس تدل على ملكة النظر والقدرة على التفكير والمحاكمة العقلية التي ورثها حفيده، وكان الاثنان – الأب والجد – من أئمة المذهب المالكي، مذهب أهل الأندلس والمغرب.

وقد ورث ابن رشد عن أبويه كثيرا من مواهبهما الفطرية، فسلك بطبيعة تربيته وتاريخ أسرته مسلكهما في حب العلم والإقبال على تحصيله، فأتقن علم الكلام على طريقة الأشاعرة، ودرس الفقه على مذهب مالك، وروى الحديث على أبيه أبي القاسم واستظهر عليه (الموطأ) حفظا، وهو الكتاب الأساسي لمذهب الإمام مالك، مما أهله لتولي مركز القضاء في أشبيلية وقرطبة كأبيه وجده، ثم تتلمذ على أبي جعفر هارون، ودرس عليه الطب ولزمه مدة وأخذ عنه كثيرا من علوم الحكمة، أي الفلسفة التي أولع بها ولعا شديدا حتى انقطع إليها فبرع فيها وكانت مصدر شهرته وذيوع

صيته، فقد وصل فيها إلى ما لم يدركه سواه.. فكانت له فيه الإمامة دون أهل عصره.. "كما يروي المؤرخون"

كان ابن طفيل يعرف له طول باعه في الفلسفة وعلوم الأوائل، فقدمه إلى الأمير أبي يعقوب يوسف الذي كان معنيا باجتذاب العلماء والفلاسفة إليه وهناك لمع نجم ابن رشد ونال حظوة كبيرة عند خليفة دولة الموحدين، فقد عيَّنه الخليفة طبيبا خاصا له إلى جانب طبيبه ابن طفيل، كما ولاه وظيفة القضاء بقرطبة، وكان ابن رشد ينتقل معظم الوقت مع بلاط الخليفة سواء بالمغرب أو بالأندلس ولما توفي ابن طفيل سنة ٥٨١ هـ – انفرد ابن رشد بمنصب الطبيب الخاص – ولبث على مكانته في بلاط الموحدين حتى توفي الخليفة أبو يعقوب سنة ٥٨٠ هـ وخلفه في الملك أبو يوسف ولده الملقب بالمنصور الذي أبقى ابن رشد على ما كان عليه من الخطوة والمقام وكان يعظمه ويكبره إلى حد أنه كان يخاطبه بأخي..

ولكن جرى ما لم يكن بالحسبان وكانت محنة فيلسوفنا القاسية، فقد كان ابن رشد خلال ذلك قد ذاعت شهرته الطبية والفلسفية ذيوعا عظيما حتى كثر حساده وشائنوه الذين نقموا عليه آراءه وأفكاره، ونغصوا على منزلته لدي الخليفة وعلو مكانته.. فنشروا حول اسمه دعاية مسمومة، ورموه بالمروق والخروج على الدين حتى أوغروا عليه قلب المنصور، فلم يتحرج من مسايرة علماء الدين المناوئين لابن رشد استرضاءً للعامة، وانتهى الأمر بإدانة الفيلسوف وتلاميذه، وبإحراق كتب الفلسفة كلها ما عدا الطب والحساب والفلك، وإبعاد ابن رشد عن المعركة بنفيه من قرطبة واعتقاله ببلده أليسانة، وكان ابن رشد يومها قد تجاوز السبعين من عمره.

معارضة الغزالي

ومن أسباب نكبة ابن رشد هو معارضة الغزالي بكتاب يسفه فيه ما جاء في كتابه "تهافت الفلاسفة" بكتاب "تهافت التهافت"ولم تمض سنوات إلا وعفا المنصور عن ابن رشد، وهكذا استرد حظوته في بلاط الموحدين وعاد إلى مراكش، حيث كان المنصور ليلحق بحاشيته ولكنها عودة لم تطل، فقد وافاه الأجل بمراكش في السنة نفسها التي عاد فيها وهو في الخامسة والسبعين من عمره فدفن أولا بمراكش لمدة ثلاثة أشهر فقط، ثم نقل منهما إلى قرطبة مسقط رأسه ودفن بها في روضة آبائه، وبموته في عام ٥٩٥ هـ، فقدت الفلسفة أكبر نصير لها في الأندلس والعالم الإسلامي عامة.

وضع ابن رشد كتبا ورسائل كثيرة في شتى العلوم المعروفة في عصره، ومؤلفاته لا تقل عن سبعين مؤلفا ضاعت أصول الكثير منها ومعظمها تلخيصات وشروح على أرسطو، ولذلك سمي ابن رشد بالشارح الأول لأرسطو، ولكن أهم مؤلفاته المبتكرة الأصلية: "تهافت التهافت" الذي ذكرناه، ومقالتان في علم النفس، ومقالة في العقل، وكتاب "الكليات في الطب"، وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال والكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة في العقائد وعلم الكلام وبداية المجتهد ونهاية المقتصد في الفقه على المذهب المالكي. وقد كان ابن رشد ذلك العقل الذي صدته الحضارة الإسلامية الغاربة، فتلقفته الحضارة الغربية الناهضة واعتبرته أحد أسباب نهضة الغرب بشهادة المؤرخين والمستشرقين حتى أن إرنست رينان يقول إن تيارا رشديا سرى في الجامعات الفرنسية إبان عصر النهضة يقوم علي العقل

وشروح (آفيروس) ابن رشد لأرسطو.. وقد عرف العالم فضله في الوقت الذي كان ينكره ولا يعرفه فيه العرب وما تأخروا إلا بتركهم ملكة العقل التي يعد ابن رشد أحد أبرز روادها.

ابن عبد الحكم (١٨٧ – ٢٥٦ هـ)

مؤرخ سبق عصره!

هو ابن عبد الحكم عبد الله بن عبد الحكم، ينتسب إلى إحدى الأسر العربية التي جاءت إلى مصر في القرن الأول الهجري، ونزلت في بلدة الحقل بالقرب من خليج العقبة، ولد عام ١٨٧ – ٨٠٣م وكان والده يشغل آنذاك منصب صاحب المسائل، وهي وظيفة لا ينالها إلا العلماء الأمناء، لأن القائم بها كان يقوم بمهمة التحري للعدالة.

وعندما بلغ ابن عبد الحكم الثانية عشرة من عمره شاهد مجئ الإمام الشافعي إلى مصر (١٩٩ هـ) ونزوله ضيفا على والده الذي اشتهر بالكرم والحفاوة بالعلماء، وهيأت هذه المناسبة الطيبة سبيلا عظيما أمام ابن عبد الكم ليستفيد من الحركة الفكرية التي أشعل الشافعي جذوتها في مصر، ولم تلبث الأحداث أن فتحت سبلا أخرى عديدة للمعرفة أمام هذا المؤرخ الناشئ، حين تولى والده – بعد خمس سنوات من مجئ الشافعي لمصر – رئاسة جماعة المالكية، وهي أعظم الطوائف في مصر وعند جيرانها في بلاد المغرب إذ جاء علماء المغرب والأندلس إلى هذا العالم الكبير يدرسون عليه مذهب الإمام مالك، والتقوا بالتالي في منزل أستاذهم بابنه المؤرخ وزوده بالأخبار العديدة عن أوطانهم وأحوالهم.

ووجد ابن عبد الحكم في إخوته الكبار، وكانوا ثلاثة من أعظم علماء مصر وفقهائها، أساتذة له أيضا، ونال على أيديهم قدرا واسعا من ثقافته وخبرته في الحياة، فكان أخوه الأكبر، واسمه عبد الحكم فقيها على مذهب الإمام مالك، ومن المشهود لهم بالتقوى وجود الحظ، والأخ الثاني واسمه سعد فقد ذاع صيته في شتي أرجاء مصر والمغرب بسبب علمه الغزير، ورحل إليه الطلاب من كل مكان لينهلوا العلم من موارده، واشتهر الأخ الثالث واسمه محمد بحبه للحديث وروايته ونبغ في ذلك حتى آلت إليه رئاسة المالكية في مصر بعد وفاة والده عبد الله.

وإذا كان المؤرخ ابن عبد الحكم قد استفاد من نشاط أسرته العلمي، وشاركها حلو الحياة فإنه قاسمها كذلك مر الحياة، ونال قدرا بالغا من الأذى الذي حل بأفرادها بسبب انشغالهم بالشئون السياسية في البلاد، وشاهد أولى النكبات التي حلت بأسرته وهو في السابعة والعشرين من عمره، إذا اعترض جماعة من كبار أهل مصر على تعيين الخليفة المأمون العباسي لأخيه المعتصم حاكما على بلادهم، وكتبوا إلى الخليفة بذلك، وعندما جاء المعتصم إلى مصر ألقى على نفر من كبار أهل مصر ومن بينهم عبد الله ابن عبد الحكم، وعلى الرغم من عدم ثبوت أية تهمة بهذا الرجل الفاضل إلا أنه ظل محبوسا حتى لقي حتفه سنة ٢١٤ هـ/ ٨٢٩ م، وتركت هذه المأساة أثرا عميقا في نفس الابن الشاب، وجعلته يكره السياسة والانشغال بها وينصرف بالتالي إلى العمل في ميدان التاريخ.

محن جديدة

وتتابعت المآسي بعد ذلك أمام ابن عبد الحكم، فلم يكد يمضي على وفاة والده ثلاثة عشر عاما حتى حلت بإخوته نكبه قاسية بسبب مشكلة خلق القرآن،

التي أثارها الخليفة المأمون العباسي، إذ تعصب الخليفة لرأي المعتزلة القائل بمبدأ خلق القرآن، الذي يخالف رأى أهل السنة القائلين بأزليته، وأمر بأن يمتحن الناس في مصر، وألا يؤذن لأحد في فتوى أو شهادة إلا إذا أقر بخلق القرآن، واشتدت هذه المشكلة في مصر حين ولي الخلافة المعتصم بعد المأمون، فبعث الخليفة الجديد إلي قاضي مصر، وهو محمد بن أبي الليث بامتحان الناس في خلق القرآن، ومعاقبة المعارضين منهم.

وأصاب إخوة ابن عبد الحكم الكثير من الأذى في هذه المحنة لأنهم من رؤساء المالكية، وبالتالي من أنصار السنة الذين لا يقرون القول بخلق القرآن فأمر القاضي بضرب أكبر أفراد هذه الأسرة وهو عبد الحكم، ثم بعث به إلى الخلافة لتتولى امتحانها بنفسها بعد أن أصر على رفض القول بخلق القرآن، كما أمر بأن يطاف بالابن الثاني وهو محمد في شوارع الفسطاط وعمامته مدلاة في رقبته، ويصيح معلنا القول بخلق القرآن امتحانا في التشهير به والإذلال له.. وقبل أن يفيق مؤرخنا من هول ما حدث لإخوته، وقعت الكارثة الكبرى والأخيرة التي تعرضت لها أسرته المنكوبة، ذلك أن الخلافة بعثت بعمالها إلى مصر للتحري عن أموال أحد الثائرين عليها، واسمه ابن الجروي، بعد أن ألقت القبض عليه في تلك البلاد.

وترامت الشائعات بأن ابن الجروي، أخفي شطرا كبيرا من أمواله عند أسرة ابن عبد الحكم، ولذا أمر السلطان بالقبض على أفراد هذه الأسرة ومن بينهم المؤرخ ابن عبد الحكم الذي سبق أن شهر بهم في محنة خلق القرآن، وعرفت هذه الدعوى باسم "قضية بني عبد الحكم" بسبب الأحكام القاسية التي نزلت بهم، حيث حكم

ابن أبي الليث على أبناء هذه الأسرة بغرامة مقدارها مليون ونصف مليون دينارا تقريبا، وتبع ذلك اتخاذ الإجراءات القضائية لتحصيل تلك الغرامة الباهظة من حيث مصادرة أموال وممتلكات بني عبد الحكم، كما زج بهم في السجون، ومات أكبر أفراد الأسرة وهو عبد الحكم في السجن.

رد الاعتبار

وبعد ثلاثة أشهر من تلك المحاكمة البالغة اتضحت براءة أفراد أسرة ابن عبد الحكم، ولذا أمرت الخلافة بإلقاء القبض على ابن أبي الليث وما حكمته لأنه لم يلتزم العدالة في تحرياته وحكمه، وفي نفس الوقت تم الإفراج عن أبناء عبد الحكم وأعيدت لهم ممتلكاتهم، وآثر أولئك الأبناء الابتعاد عن الحياة العامة حتى لا يتعرضوا لمتاعب أخرى جديدة.

ولكن شاءت المقادير أن تحفظ لتلك الأسرة ذكراها، وتروي الأجيال المتعاقبة على القرون تفانيها في خدمة الدراسات الإسلامية عن طريق العمل الفريد الذي نهض به المؤرخ ابن عبد الحكم إذا جاء تدوينه لتاريخ مصر في المرحلة الأولى في حياتها في ظل الإسلام ثمرة ناضجة من الثمرات الشهية التي قدمها أبناء أسرة بني عبد الحكم من أجل خدمة وطنهم، واعترف العالم بفضل هذا العالم وما ناله من السبق المظفر على سائر إخوته في ميدان الدراسات الإسلامية، وصاروا يلقبونه من دونهم جميعا.

ليس باسمه الأول وهو عبد الرحمن، ولكن باسم ابن عبد الحكم كأنما هو وحده الحافظ الأمين على تراث أسرته العلمي والاجتماعي، وقد جاء تدوين ابن عبد

الحكم لكتابه فتوح مصر والمغرب: "في فترة من أهم فترات اليقظة الفكرية ليس في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، فحسب، بل وفي تاريخ الفكر والثقافة في العالم كذلك. ووضع ابن عبد الحكم في ذلك الوقت المبكر القواعد الجديدة لكتابة علم التاريخ، حتى أن "لوسيان جولدمان" الاجتماعي التاريخي أشاد بذلك الكتاب الرائد في علم التاريخ وأسسه وتقسيمه والخروج من دائرة القصص الديني والتاريخ الديني إلي دائرة تواريخ الأقاليم والشعوب.

والكتاب فريد لأنه قد اعتنى فيه مؤلفه بدراسة تاريخ مصر قبل الإسلام ثم دراسة الفتح الإسلامي لها، وبيان علاقتها بجيرانها في ظل الحكم الإسلامي وتتبع التطورات التي شهدها وطنه في ظل العهد الإسلامي الجديد من نواحي الإدارة والسياسة، حتى انتهى من سرد بعض الحقائق التاريخية إلى سنه ٢٤٦ هـ أي قبل وفاته بعشرة أعوام تقريبا.

أبواب إسحاق الشاطبي (٧٠٠- ٨٠٠ ه)

مجدد واسع الأفق!

هو إبراهيم بن موسى بن محمد النجمي الغرناطي الشاطبي، كان من غرناطة بالأندلس، أخذ العربية وغيرها من أئمة أهل عصره، كابن الفخار الألبيري وأبي القاسم السبتي وأبي عبد الله التلمساني، وغيرهم ممن أخذ عنهم، ولم يزل مجتهدا في طلب العلوم حتى برع فيها، وصار من اكبر أئمتها، وتكلم في كثير من مشكلات المسائل مع علماء عصره من شيوخه وغيرهم، وكان حريصا على اتباع السنة، مجانبا للبدعة والشبهة، حتى وقع له في ذلك أمور مع جماعة من شيوخه، لشيوع البدعة بينهم، وتساهلهم في شأنها إرضاءً للعامة، وأشباههم، فلم يسلك في هذا مسلكهم، لأنه كان ينهج نهج المتقدمين من العلماء فكان لا يأخذ الفقه ونحوه إلا من كتب الأقدمين، ولا يرى لأحد أن ينظر في الكتب المتأخرة كما قرره في كتابه – الموافقات – فقال:

"وأما ما ذكرتم من عدم اعتمادي على التآليف المتأخرة، فليس ذلك مني محض رأي، ولكني اعتمدته بحسب الخبرة عند النظر فيما يكتب المتقدمين مع المتأخرين، كابن بشير وابن شاس وابن الحاجب ومن بعدهم، وإن بعض من لقيته من العلماء بالفقه، أوصاني بالتحامي عن كتب المتأخرين، وأتى بعبارة خشنة، ولكنها محض النصيحة، والتساهل في النقل عن كل كتاب جاء لا يحتمله دين الله، ومثله

إذا عمل الناس بقول ضعيف ونقل عن بعض الأصحاب لا تجوز مخالفته، وذلك مشعر بالتساهل جدا، ونص ذلك القول لا يوجد لأحد من العلماء فيما أعلم والعبارة الخشنة التي أشار الشاطبي إليها كان ينقلها عن صاحبه أبي العباس القباب أنه كان يقول في ابن بشير وابن شاس ومن بعدهما: أفسدوا الفقه، وكان يقول: شأني عدم الاعتماد على التقاليد المتأخرة، أما للجهل بمؤلفها أو لتأخر أزمتهم جدا، فلذلك لا أعرف كثيرا ولا أقتنيته وعمدتي كتب الأقدمين المشاهير"

وكان لهذه النزعة الإصلاحية عند الشاطبي أثرها في كتابين من كتبه وهما: "الموافقات"، و"الاعتصام" فأما كتاب الموافقات فهو في علم أصول الفقه، وهو يقوم علي ركنين: أولهما: علم اللغة التي نزلت بها الشريعة وثانيهما: علم أسرار الشريعة ومقاصدها، وقد اهتم الذين ألفوا في هذا العلم قبل الشاطبي بالركن الأول، فذكروا فيه ما تمس الحاجة إليه قواعد اللغة بطريق مباشر، وأضافوا إليه ما يتعلق بتصور الأحكام، وشيئا من مقدمات علم الكلام ومسائله، وجعلوا ذلك كله مقدمة للمقصود من هذا العلم وهو ما يتعلق بالكتاب والسنة والإجماع والقياس، ولكنهم أطالوا الكلام فيما جعلوه مقدمة، حتى صارت كأنها هي المقصودة من هذا العلم، وقد وقف هذا العلم منذ القرن الخامس الهجري عند هذا الحد، وكل ما ألف فيه من الكتب يدور حول ذلك بين تلخيص وتبسيط وشرح، ولا أحد يأتي فيه بجديد يذكر، فلما وضع الشاطبي كتاب – الموافقات – سلك في ذلك العلم مسلكا جديدا، وأبى أن يدور فيما دار فيه من قبله ومن عاصره، من ذلك الحد السابق، فاهتم هو فيه بالحكم الثاني الذي أهملوه، وقسم مقاصد الشريعة إلى أربعة أنواع، ثم أخذ يفصل كل نوع منها، وأضاف إليها مقاصد المكلف في التكليف، وبسط هذا الجانب من

العلم في اثنين وستين مسألة، وتسعة وأربعين فصلا، وبيَّن –كما ذكر الشيخ عبد الله دراز في مقدمته لشرحه –كيف كانت الشريعة مبنية على مراعاة المصالح، وأنها نظام عام لجميع البشر دائم وأبدي، لو فرض بقاء الدنيا إلى غير نهاية، لأنها مراعي فيها مجرى العوائد المستمر، وأن اختلاف الأحكام العوائد ترجع كل عادة إلى أصل شرعي يحكم عليه وأن هذه الشريعة كما يقول الشاطبي خاصيتها السماح، وشأنها الرفق وتحمل الجم الغفير، ضعيفا وقويا، وتهدي الكافة: فهيما وغبيا.

رائد التجديد

وهذه ناحية في التجديد لها قيمة عظيمة، لأنها تقضي على جمود الذين يقفون في الشريعة عند دلالة النصوص في ذاتها، ويغفلون النظر في مقاصدها وأغراضها، ولا يراعون أسباب النزول وأحواله، ولا شك أن المقاصد والأغراض تتفاوت، وأن الظروف والأحوال تتغير، فمن يقف عند دلالة النصوص في ذاتها يجمد عليها ويجني على الشريعة بتفويت مقاصدها وأغراضها، وجعلها غير ملائمة لما يجد من الظروف والأحوال فيها، وإذا كان للإمام الشافعي فضل وضع علم أصول الفقه فإنه كان كما سبق لا يخرج على قاعدة أهل الحديث من الاعتماد على الظاهر الذي تدل عليه النصوص، ويرفض ماعدا هذا مما يسمى في عصرنا روح الشريعة أو روح القوانين، وبهذا يكون للشاطبي – وحسب اعتراف المستشرق الألماني جوزيف شانت – سبق كبير بمراعاته ما يسمى بروح الشريعة أو روح القانون، وهذا باهتمامه بمقاصد الشريعة ذلك الاهتمام وسلوكه في الفقه هذا المسلك السابق.

وأما كتابه الثاني – الاعتصام – فهو في نقد الحياة الدينية والاجتماعية بين المسلمين وبيان ما دخل فيها من البدع المذمومة، ولاسيما البدع الدينية، وقد ذهب في هذا إلى أن كل بدعة في الدين مذمومة ولو كانت مما سموه البدع المستحسنة، وذكر أن استحسان ذلك وقع بسبب اشتباهه بالاستحسان الفقهي والمصالح المرسلة، مع أنه ليس منهما في شئ.. وانتقد الشاطبي المثير من الأوضاع الاجتماعية السيئة التي كانت منتشرة في عهده مثل التصوف المثبط للهمم والداعي للتواكل لأنه كان يرى فيه مخالفة لأصول الدين، وقد ترك لنا بكتابيه هذين موسوعة فقهية علمية وعلمية معا وقدم لنا أصول مصطلح روح القانون أو الشريعة الذي استخدمه بعد ذلك مونتسكيو في كتابه "روح القوانين" أي أصولها وغاياتها، ولا يذكر لنا التاريخ عن الشاطبي أين ولد أو عام كذا أو حتى كيف مات وبأي أرض، ولكن ما بقي لنا منه يدل على روح وثابة إلى العلم تواقة إلى التجديد فهو لعلم أصول الفقه والشريعة كابن خلدون لعلم التاريخ والعمران البشرية، وما يهمنا منها أنها أكثر أعلام الإسلام فهما لروح الشريعة الإسلامية التي بين مقاصدها العامة وصاغها في خمسة مبادئ أساسية هي الحفاظ على النفس والعرض والدين والعقل والمال وعلى هذا الأساس قام فهم جديد للشريعة الإسلامية مبني على هذه المقاصد التي جاهد الشاطبي لإعلانها .

أبو الحسن الأشعري (٢٦٠ – ٣٢٤ هـ)

الباحث عن اليقين!

هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر ابن إسحاق بن سالم ابن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي برده بن موسى الأشعري (ﷲ) أي ينتهي نسبه إلى صحابي رسول الله ﷺ، موسى الأشعري، ولد بالبصرة في العراق سنة ٢٦٠ هـ ولم نقدم لنا المصادر فيما يتعلق ببيئته الخاصة سوى النذر القليل غير أن هذا النذر القليل أهل السنة والجماعة، بل كان من العارفين بعلوم الحديث، وهو ما يزيد من قدره كرجل علم ينتمي إلى جماعة المحدثين، وقد توفي والده وهو في سن صغيرة جدا، فأوصى به عند وفاته إلى زكريا بن يحيى السباحي، والذي كان بدوره من كبار رجال أهل السنة فهو إمام من أئمة الحديث والفقه في عصره.

فكان للولد الصغير حظ اليتيم، ولكنه سار في النهج المرسوم لتعلم العلوم السنية على يد أكبر علماء المحدثين في عصره، فحصل العلوم الإسلامية من منابعها السنية وأصول التفسير، وبرع في ذلك كله.

وتكونت بيئته الخاصة، بفضل توجيه والده قبل وفاته، قد كان لها الأثر كل الأثر في تلقيه العلوم الدينية على أكبر رجال الدين من أئمة أهل السنة في ذلك الحين، هذا فيما يتعلق بالقرآن والحديث والفقه وأصوله.

أما فيما يتعلق بالعقائد، فقد كان من الطبيعي، وهذه هي أجواء بيئته الخاصة أن يتجه إلى الأخذ بآراء الفقهاء والمحدثين فيها، ولكن لم يكن في الحسبان أن تتزوج أمه من أحد كبار رجال الاعتزال في ذلك الحين وهو أبو عبد الجبائي توفي (٣٠٣ هـ) وبقي بجواره ثلاثين عاما حتى أخذ عنه علم العقائد بأسلوبه العقلي، وبذلك بدأ أبو الحسن صلته الذهبية في الكلاميات على الجبائي ومدرسته مبكرا مما هيأه إلى اتقاء أساليبهم وضبط ردوده عليهم، أي على أهل الاعتزال فيما بعد فإذا كان لبيئة أبي الحسن الخاصة أثر في حياته، فيمكننا أن نقول أنه وهو العقل المتقد، والقلب المنفتح إلى التحقق برضى الله تعالى، قد عرف، عندما قرب من الأربعين، كيف يعزف عن أقوال أهل الزيغ والبدع، ويأخذ من العلوم التي زواجها بالقدر الذي يخدم به عقائد المسلمين أجمعين، ويعتمد في موقفه الجديد، بعد تحوله من الاعتزال إلى أهل السنة، على أصول السلف الصالح التي لم يجد عنها من بعد، واستطاع في الوقت نفسه استجابة لمقتضيات عقول الناس في ذلك لم يجد عنها من بعد، واستطاع في الوقت نفسه، استجابة لمقتضيات عقول الناس في ذلك الحين، أن يستعين بالعقل مع الحرص على إعطاء مكان الصدارة والأولوية للنص المنزل، وبذلك تأسست الوسطية العقائدية عن طريق جمعه بين النقل والعقل..

وبدأت حيرته العلمية، عندما كان في مجلس المعتزلة، متجرأ في مذهب الاعتزال، ولكنه لم يكن متعصبا له كغيره من المعتزلة، بل كان يتحرى فيه الحق والصواب، وكان كثيرا ما يورد على أساتذة منهم الأسئلة في الدروس فلا يلق منهم جوابا شافها، فيتحير في أمره، ويعتريه الشك في صحة مذهبه.

نقطه تحول

ثم أراد أن يقطع هذه الحيرة، فغاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوما، وخرج بعد هذا إلى المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة فصعد المنبر وقال: "معاشر الناس، إنما تغيبت عنكم في هذه المرة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي حق على باطل، ولا باطل على حق، فاستهديت الله تبارك وتعالى، فهداني إلى ما أودعته في كتبي هذه وانخلعت من جميع من كنت أعتقد كما أنخلع من ثوبي هذا"

وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به، ودفع الكتب إلى الناس، فمنها كتاب اللمع وكتاب أظهر فيه عوار المعتزلة سماه "كشف الأسرار وهتك الأستار" وغير هذا من كتبه، والظاهر أنه مضت عليه مدة طويلة ألف فيها هذه الكتب قبل المدة التي غاب فيها عن الناس.

وكان في أهل السنة قبل الأشعري جمود شديد، كانوا يرون فيه أن علم الكلام بدعة مذمومة، وأنه لا يصح الاشتغال بالرد على الزنادقة ونحوهم لأن الرد عليهم إذاعة لشبههم بين الناس، وكانوا يرون أنه يجب الوقوف عند دليل النقل، وأنه لا يصح التأويل فيه، ولا العدول عنه إلى الأدلة العقلية المنطقية، فلم يشاركهم الأشعري في هذا الجمود، ورأى أنه يجب مع الأخذ بعقائد أهل السنة أن يستعان في إثباتها بأساليب علم الكلام، وأن تقام عليها الأدلة العقلية المنطقية مع الأدلة النقلية، وكذلك رأى أنه لا يصح أن يحجم عن الرد على المخالف بزعم أن فيه إذاعة

لشبهته، وقد التجأ ذلك إلى ارتكاب بعض التأويل في دليل النقل، ولكنه كان يقصدون فيه ولا يسرف كالمعتزلة.

فجاء مذهب الأشعري في ذلك مذهبا جديدا وسطا بين إفراط المعتزلة وتفريط القدامى عند أهل السنة، فنفر منه الفريقان، بل كان القدامى من أهل السنة وأشباههم في الجمود أشد عليه من المعتزلة، ولكنه انتصر أخيرا على الفريقين، حتى صار مذهبه مذهب الجمهور المسلم في مشارق الأرض ومغاربها، وهذا هو مبلغ تجديد الأشعري بين المسلمين م يتعد فيه دائرة الفرق الدينية، ولكنه قدم إصلاحا معتدلا، بالرغم من أنه كان شديدا على مخالفيه من المعتزلة.

وبهذا أسس الأشعري مذهب الجمهور للمسلمين الذي يتوسط في العقائد فلا يعمد إلى التأويل العقلي المتعسف عند المعتزلة ولا يسقط في الجمود النقلي الظاهري عند أهل السنة، وتتلمذ على مذهبه العديد من أعلام الفكر الإسلامي، كالغزالي وغيره من أئمة المذهب الأشعري في العقيدة، وكان فتحا جديدا لمنطقة وسطي بين إسلام المعتزلة وإسلام أهل السنة، ولو أن ذلك المذهب انتشر قبل محنة خلق القرآن لكان له عظيم الأثر في وأد هذه المحنة في المهد بفضل جمعه بين الفريقين بلا شقاق تحت راية الإسلام الدين السمح العظيم

وتوفي أبو الحسن الأشعري سنة ٣٢٤ تاركا لنا تراثا كبيرا من الكتب أهمها كتاب "مقالات الإسلاميين" الذي جمع فيه أقوال الفرق المختلفة والإبانة عن أصول الديانة، وفيه وضع أصول المذهب الأشعري في العقائد.

أبو الفرج الأصفهاني

صاحب الأغاني

علم من أعلام تاريخ الأدب والغناء في فترة من أنصع فترات الحضارة العربية عاش بين عامي ٢٨٤، ٣٥٦ هـ متنقلا بين أصفهان في بلاد فارس وبغداد حاضرة الدولة العباسية، ومؤلفات أبي الفرج كثيرة ومتنوعة، ولكنها جميعا تدور حول ما يمكن أن يسمى بآداب المنادمة والمجالس ، مثل: "أخبار القيان" "أدب السماع"، "المماليك الشعراء"، "أخبار الطفيليين"، "الأغاني" على أن أشهر كتبه جميعا هو "الأغاني" الذي يُعد منِ أشهر كتب التاريخ الأدبي، وهذا الكتاب صورة لظاهرة الترف التي عمت الطبقات الحاكمة وأعيان الدولة بعد الرخاء الذي أصابته الدولة الإسلامية في العصر العباسي، وفي مثل هذا الجو يحتل النديم أو المغني عند الأمير مكانة لا تعادلها مكانة أخرى، وقد كان الخليفة "الواثق" يقول عن المغني "اسحق الموصلي": إن "اسحق" لنعمة من نعم الملك التي لم يحظ بمثلها ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكي" ، وحين مات اسحق، قال عنه الخليفة "المتوكل": "ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته"

وقد كان طبيعيا وقد أولى الناس الغناء والمغنين هذه العناية، أن يكثروا في النظر والبحث في هذا الفن، فكان أن استقر في عهد "هارون الرشيد" على مائة أغنية مختارة، عُدت أجمل أغاني العصر وألحانه وسميت بـ "المائة صوت المختارة" ومن هنا كانت رغبة بعض الناس إلى "أبي الفرج" وقد عرف عنه التبحر في فنون

الأدب والمسامرة فطلب منه أن يكتب عن هذه الأصوات، فكان كتاب "الأغاني" الذي يعد موسوعة أدبية أرخت لمعظم أعلام الأدب العربي في الشعر والموسيقى والغناء حتى القرن الرابع، ولكن أبا الفرج كان يورد رواياته بمنهج النديم القصاص لا بمنهج المؤرخ الناقد، فلم يحفل بترتيب الترجمات التي أوردها ترتيبا تاريخيا ولا فنيا ولا موضوعيا، وذلك مما يجعل الجهد الذي يبذله القارئ للتعرف على ما يريد شاقا، وإن كانت الفهارس الحديثة قللت من هذا الجهد، ويبقى بعد ذلك كتاب "الأغاني" الذي يُعد من أمتع الكتب العربية، وأن مؤلفه أبا الفرج الأصفهاني من ألمع مؤرخي الأدب والموسيقي والغناء القدماء.

أبو الفرج الجوزي (٥١٤ – ٥٩٧ هـ)

حضور كبير.. وعلم غزير

هو جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي التيمي البكري ينتهي نسبه إلى الخليفة الأول "أبو بكر الصديق"، وقد ولد ببغداد سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠ م، ولما ترعرع قليلا حفظ القرآن، وقرأه على جماعه بالروايات، ثم طلب العلم على جمع كثير من العلماء، وكان حنبلي المذهب، وفيه تعصب شديد له، حتى آذوه في سبيل تعصبه له ونال فيه ما ناله من الشدة، وقد قال له قائل ذات يوم: "ما بك عيب إلا أنك حنبلي"، فأنشده في الحال:

وعيرني الواشون أني أحبه		وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وقد اشتغل بالوعظ وهو صغير جدا، وكان الناس يرتاحون لوعظه، ويقصدون من كل فج لسماعه، فاشتهر بهذا أمره بينهم، وذاع حديثه بين العامة والخاصة وعظم شأنه في عهد الوزير أبي هريرة، ولما ولي المستنجد بالله الملك خلع عليه خلعه مع الشيخ عبد القادر وأمثاله، وأذن لهم بالجلوس بجامع القصر، فتكلم أبو الفرج في الوعظ واحتشد القوم على مجلسه، كما كانوا يفعلون في كل مجلس له، وعددهم على الدوام لا يقل عن عشرة آلاف.. ولما ولي المستضيء قوي اتصال أبي الفرج به، وقد ألف له كتاب "المصباح المضيء في خلافة المستضيء"، ثم كتاب "النصر على مصر" بمناسبة عودة الخطبة للعباسيين بمصر وانقضاء عهد الفاطميين وقد

حظي عند المستضيء وحصل له من القبول وحضور الملوك مجالسة ما لا يكاد يوصف، وقد تكلم يوم عاشوراء سنة ٥٧٤ هـ وكان أمير المؤمنين حاضرا مجلسة فقال له أثناء وعظه:

"يا أمير المؤمنين، كن لله سبحانه مع حاجتك إليه، كما كان لك مع غناه عنك، إنه لم يجعل أحدا فوقك، فلا ترضى أن يكون أحد أشكر له منك"

فتصدق أمير المؤمنين يومئذ بصدقات كثيرة، وأطلق سراح بعض المحبوسين، وتقدم في هذه السنة بعمل لوح ينصب على قبر الإمام أحمد بن حنبل، وحصل لأتباع مذهبه تعظيم زائد فجعل الناس يقولون لأبي الفرج: "هذا كله بسببك، فوالله ما ارتفع هذا المذهب عند السلطان إلا بسماع كلامك"

وكان أبو الفرج كثير التأليف، وقد ذكروا أنه كان يكتب في اليوم أربع كراريس وكان له في كل علم مشاركة، وقد سئل عن عدد مصنفاته فقال: تزيد علي ثلاثمائة وأربعين مصنفا، ومن هذه المصنفات ما هو عشرون مجلدا، ومنها ما هو كراس واحد، وكان كثير الاطلاع على مصنفات الآخرين، حسن التبويب والترتيب، ومن مؤلفاته: "المغني في التفسير"، و"زاد المسير في علم التفسير"، و"عمدة الراسخ في معرفة المنسوخ والناسخ"، إلى غير هذا من مؤلفاته، وإنما أهمها على الإطلاق هو كتابة المشهور "تلبيس إبليس"

وكانت وفاته سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م، وقد أوصى أن يكتب على قبره:

يا كثير الصفح عمن كثر الذنب لديه

جاءك المذنب يرجو الصفح عن جرم يديه

أنا ضيف المذنب يرجو الصفح عن جرم يديه

أنا ضيف وجزاء الضيف إحسان إليه.

وحياة أبي الفرج في هذا حياة واعظ قضاها في أمر الناس بالتقوى، وحثهم على القياس بالطاعات وترك المحرمات، وقد رضي الناس بهذا منه، ورضي الملوك أيضا بهذا بالطاعات وترك المحرمات، وقد رضي الناس بهذا منه، ورضي الملوم أيضا بهذا منه، لأنه كان يحث الناس في وعظه على لزوم الجماعة، وعدم الخروج على الطاعة، وهذا كان أقصى ما يطلبه الملوك من واعظ مشهور ملك ألباب الناس، واستهوى بوعظه قلوبهم، وقد أفاد أبو الفرج بهذا كثيرا في دنياه، واستفاد به أهل مذهبه ولا شئ في ذلك.

تشدد في الدين

وقد كان مع هذا في أبي الفرج من التشدد في الدين ما في غيره من أتباع ابن حنبل، فكان يذم التأويل في الدين، وينظر بعين البغض إلى الفرق التي خالفت سنة السلف في ترك التأويل، وقد حُكي أنه وقع في عهده نزاع بين أهل السنة والشيعة ببغداد في المفاضلة بين أبي بكر وعلي وقع اتفاق الفريقين بما يقوله أبو الفرج في ذلك، فأقام كل فريق من يسأله عنه وهو على الكرسي في مجلس وعظه، فقال على البديهة: "أفضلهما من كانت ابنته تحته" (أي لم تتزوج) ونزل في الحال حتى لا يُراجع فيما قال، فكل من الفريقين احتج بها لنفسه.

ولعل أهم ما في كتب الجوزي كتاب "تلبيس إبليس"، وهو الكتاب الذي وقف فيه مع الصوفية موقفا جيدا، إذا وفي القول حقد في أمرهم، ونطق بحكم الدين في تصوفهم، وكان في هذا صريحا لا يخشى طغيان سلطانهم في ذلك الحين على العامة وأشباههم من المسلمين فأبطل نسبة تصوفهم إلى أهل الصفة من أصحاب النبي فذكر أن أهل الصفة إنما قعدوا في المسجد وأكلوا من الصدقة بحكم الضرورة، لأنهم كانوا فقراء يقدمون علي المدينة ولا أهل لهم ولا مال، فبنى لهم النبي ﷺ صفة في مسجده ليأووا إليها ويناموا فيها، فلما فتح الله على المسلمين استغنوا عن تلك الحالة، وخرجوا من صفتهم يطلبون الدنيا التي فتحت لهم.

ثم ذكر ثانيا أن الأولين منهم ذكروا أن التصوف عندهم هو مرضاة النفس ومجاهدة الطبع، برده عن الأخلاق الرذيلة، وحمله على الفضيلة، من الزهد والحلم والصبر والصدق والإخلاص، ثم لبس عليهم إبليس أشياء، ثم لبس على من بعدهم، وكلما زادوا قرنا زاد طمعه في القرن الثاني، فزاد تلبيس إبليس عليهم من الوجد والرقص والشطح والبعد عن الدنيا وكراهية العلم والعلماء وتقسيمهم العلم إلى ظاهر وباطن وما إلى ذلك من تلبيسات.

وذكر أبو الفرج كثيرا من الكلام عن الصوفية، وكله كلام جيد يدل على عقلية مستنيرة في هذه الناحية من التجديد، ولكن السيل كان جازفا، لأن العامة كانت تتهافت على أولئك المتصوفين، فلم يكتب لحركته التجديدية النجاح إلا عندما تجلت في غيره من العلماء الذين نزعوا منزعه، وحملوا على التصوف المدعي يبينون مخالفته لأصول الدين الإسلامي الصحيح.. فرحمه الله مات وترك لنا سيرة مليئة بالوعظ والحياة الزاهدة والتي وهبها للعلم.

أبو حامد الغزالي (٤٥٠ -٥٠٥ هـ)

حجه الإسلام.. الفقيه العالم

هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، ولد بمدينة طوس من أعمال خراسان من أصل فارسي، وكان والده رجلا فقيرا صالحا لا يأكل إلا من كسب يده في عمل غزل الصوف، وكان يطوف في أوقات فراغه على المتفقهة ورجال الدين ويحضر مجالسهم، وكان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع إلى الله أن يرزقه ابنا ويجعله فقيها ويحضر مجالس الوعظ، وقد تحققت أمنيته فكان ولده محمد الذي ولد عام (٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨) وابنه احمد، فأما محمد فهو حجه الإسلام أبو حامد الذي كان أفقه أقرانه وإمام أهل زمانه، وأما أحمد فكان واعظا.

ولكن هذا الأب المسكين لم يفسح له القدر من الوقت ما يحيا به ليشهد ابنيه وقد بلغاما يتمناه لهما، إذ قضى نحبه وهما صغيران، ويذكر أنه لما حضرته الوفاة أوصى بهما صديقا له متصوفا من أهل الخير فقال له: "إن لي لتأسفا عظيما على تعلم الخط وأشتهي إدراك ما فاتني في ولدي هذين، فعلمهما ولا عليك أن تنفذ في ذلك جميع ما أخلفه لهما".. فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن فني ما كان خلفه أبوهما، وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما فقال لهما: "اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأوسكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة، فإنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما

قوت يعنيكما على وقتكما" ففعلا، وكان نظام المدارس يكفل للطالب القوت والتعليم، وكان ذلك هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما، وكان الغزالي يحكي ذلك ويقول: "طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله"

التعليقة

وقد قرأ الغزالي في صباه طرفا من الفقه ببلده "طوس"، على أحمد بن محمد الراذكاني الطوسي، ثم جنح به عقله أبى الاستزادة من العلم فنزح إلى جرجان وهو لم يبلغ سن العشرين بعد، وفيها تلقى العلم على الإمام نصر الإسماعيلي، وكان يكتب ما يتلقى من علوم أستاذه دون أن يعنى بحفظه أو يودعه ذاكرته، وهذا ما يسمى "التعليقة" ولا ندري كم من الزمن أقام في جرجان غير أننا نعلم أنه عاد إلى طوس ومكث فيها ثلاث سنين بعد مغادرته، يراجع ما تلقاه في جرجان على آخر الحادثة المشهورة التالية التي ذكرها في اعترافاته، قال: "قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا فتبعتهم، فالتفت إليَّ مقدمهم وقال: "ارجع ويحك وإلا هلكت!" فقلت له: "أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد عليّ تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به" فقال لي: "وما هي تعليقتك!" فقلت: "كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتباتها ومعرفه علمها"، فضحك وقال: "كيف تدعي أنك عرفت علمها، وقد أخذناها منك، فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم؟" ثم أمر بعض أصحابة فسلم إليَّ المخلاة، فتركت تلك الحادثة، في نفسي أثرا كبيرا وقلت في نفسي: "هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته، وصرت بحيث لو قطع عليَّ الطريق لم أتجرد "من علمي".

ثم قدم الغزالي إلى نيسابور، إحدى مدن العلم والنور آنذاك، فاتصل بغمام الحرمين أبي المعالي الجويني، وهو الذي عهد إليه وزير السلاجقة نظام الملك بالإشراف على المدرسة النظامية، لأنه كان علم عصره في التوحيد والأصول والمنطق، وإليه انتهت رياسة المذهب الأشعري آنذاك، وكان أستاذا جريئا يعتمد في إثبات القضايا على التفكير الشخصي والأدلة العقلية ولا يتردد في عرض الآراء الشائعة والتقاليد المتوارثة على محك النظر الحر وإبداء رأيه فيها بدون مواربة أو مصانعة، وستجد هذه الصفات في أبي حامد تربة خصبة تؤتي ثمارها بعد حين، ونظام الملك هو الذي ابتدع المدارس النظامية في بغداد، نيسابور، وبلخ وغيرها، وأسسها على علوم السنة ليقوي نفوذ السلاجقة ولينافس بها أزهر الفاطميين آنذاك وعلوم الشيعة التي كانت تلقي فيه.

وبموت أستاذه وصديقه إمام الحرمين عام ٤٧٨هـ رأى الغزالي نفسه ضائعا وحيدا ففارق نيسابور حزين القلب، وكان عمره وقتها ثمانية وعشرين عاما، غير أن تفكيره قد نضج ومداركه قد اتسعت وكان له من العلم ما يجابه به العلماء الأعلام ومن الفصاحة والذكاء ما لا يحده طموح.. ومرت حياة الغزالي بعديد من التقلبات بين علاقته بالسلطة في عصره فلما استشعر القلق من علاقته بالسياسة وأحس بالاضطراب لدفاعه عنها، خرج من بغداد وتفرغ للتأليف فخلف لنا عددا أكبر أن يحصى من المؤلفات وأهمها "مقاصد الفلاسفة" بسط فيه آراء فلاسفة اليونان ومن تبعهم من فلاسفة العرب وشرح أقوالهم استعدادا لنقضها كما بين هو ذلك في المقدمة، و"تهافت الفلاسفة" الذي رد فيه على أقوال الفلاسفة وأبطل حججهم وأظهر ما فيها من تناقض ومخالفة للعقل، ويعد هذا الكتاب حدثا فكريا فاصلا بين

عصرين من عهود الفلسفة في المشرق، إذ لم تستطع الفلسفة بعده أن تحتفظ بالتقدير الذي كانت تتمتع به من قبل، و"الجام العوام عن علم الكلام" واسمه يدل على موضوعه، فهو دعوة لعامة الشعب إلى الاحتكام إلى القرآن وعدم الخوض في الخلافات العقيدية التي يثيرها علم الكلام وأخيرا موسوعته الفلسفية الأخلاقية الدينية "إحياء علوم الدين"، وهو أعظم كتبه في الأخلاق والتصوف، ألفه في أخريات حياته حين جنح إلى اعتزال الناس، ثم قرأه في دمشق وبغداد، وقد شرح فيه طريق النجاة للمسلمين، ومعيار العلم فن المنطق، ميزان العمل في التصوف "الفسطاط المستقيم" في بيان ميزان العلوم، وهو من أواخر كتب الغزالي، و"مشكاة الأنوار" في فلسفة التصوف و"الاقتصاد في الاعتقاد"، و"المنقذ من الضلال" وغيرها..

وقد ناظر علماء الغرب بين ديكارت والغزالي بوصفهما مشتركين في تجربة اليقين عن طريق الشك ومعاناة الوصول إلى اليقين بالحدس القلبي عند الغزالي والحدس العقلي عند ديكارت.. ومن أجل هذا المجهود الضخم والحياة الحافلة يستحق الغزالي لقبه الخالد الذي منحه له العالم الإسلامي "حجة الإسلام" وقد توفي عام ٥٠٥ وظلت ذكراه خالدة حتى الأبد.

الإدريسي (٤٩٣ – ٥٧٣ هـ)

مؤسس علم الجغرافيا

هو محمد بن محمد بن عبد الله الأندلسي الحسيني، من سلالة الأدارسة الأشراف لذلك لقب بالإدريسي، كما أنه استقر زمنا في بلاط الملك النورماندي روجر الثاني في بالرمو فلقب بالصقلي، ولد بمدينة سبته سنة **٤٩٣** هـ – **١١٠٠** م، ثم ذهب إلى قرطبة لتلقي العلم والمعرفة على يد علماء الإسلام، وكان شغفه الحقيقي للأسفار والرحلات لمعرفة أحوال البلاد الطبيعية من جبال وأنهار، ذهب إلى العديد من البلدان ومنها سواحل إنجلترا وفرنسا، وقد تعلم لغاتهما.

قام الإدريسي برحلة طويلة بتكليف من الملك روجر اصطحب معه مائة من العلماء المحبين للأسفار ومعهم المصورون ومن الرسامين، كانت هذه الرحلة تعد أول بعثة علمية تجوب ممالك العالم الوسيط، سجل الإدريسي كل ما شاهده في هذه الرحلة في كتابة تجوب ممالك العالم الوسيط، سجل الإدريسي كل ما شاهده في هذه الرحلة في كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، وزود كتابه بخريطة عامة للأرض وسبعة خرائط تمثل أقاليم العالم السبعة المعروفة آنذاك، رسم خرائطه بدقة للشواطئ والأنهار، وقسم في خرائطه كل إقليم إلى عشرة أقسام تتجه من الغرب إلى الشرق مع خطوط الطول، ووضع لها مجتمعة سبعين خريطة أخرى، كان حريصا في استخدام خطوط الطول والعرض في تحديد الأماكن والمواضع والمسافات، من بين

هذه الخرائط جاء اعترافه بكروية الأرض، وصارت الخرائط نموذجا لأهم أطلس مأثور في علم الخرائط العربية..

قام الإدريسي بعمل نموذج مجسم للكرة الأرضية من الفضة صب فيها صور قارات الأرض بأقاليمها وبحارها وأنهارها وطرقها وموانيها وخطوط طولها وعرضها.

قام بدراسة أنواع النباتات وتصنيفها واستخدامها في العلاج، ووضع كتابه "الجامع لصفات أشتات النبات" الذي ساق فيه أنواع الأشجار، والثمار، والحشائش، والأزهار والحيوانات، والمعادن، وأخذ يرتبها ترتيبا أبجديا ووضع معجما لأسمائها بالسريانية واليونانية والفارسية واللاتينية والبربرية.

اهتم الغربيون بأعمال الإدريسي، فترجموا كتابه "نزهة المشتاق" إلى لغاتهم، وأعادوا نشر خرائطه وحققوا وصفه للبلدان، وقارنوا بينه وبين غيره من كبار العلماء الغربيين.

الإمام أبو حنيفة (٨٠ – ١٥٠ هـ)

صاحب نظرية التعليم بالمشاركة

هو النعمان بن ثابت بن زوطي الفارسي الأصل وكنيته (أبو حنيفة) ولد بالكوفة عام ٨٠ من الهجرة، وعاش أكثر حياته فيها، ولقد اتجه في أول حياته إلى حفظ القرآن شأنه شأن المتدينين في ذلك العصر، وكان حريصا بعد حفظه ألا ينساه، لذلك كان من أكثر الناس تلاوة للقرآن، وبعد أن حفظ القرآن الكريم في نشأته اطلع على السنن التي تحفظ له دينه.

ولقد نشأ أبو حنيفة في بيت من بيوت التجارة بالكوفة حيث كانت أسرته تتاجر في الخز، ولهذا كانت تجذبه ناحية التجارة، ومع ما كان عليه حال أسرته كانت لديه نزعة عقلية تتجه نحو الدراسة والعلم.

فتحت عينا أبي حنيفة فرأى، مع النزعة التجارية في أسرته، علما لأعراق وآثار الصحابة فيه، وأشع عقله فانبثقت ينابيع فكره ، فأخذ يجادل مع المجادلين ونازل بعض أصحاب النحل بما يوحي به العقل السليم، وكان ذلك في بواكير شبابه أو في آخر صباه.

ولكنه مع ذلك كان منصرفا في الجملة إلى التجارة، حرفة أسرته ومرتزقها، ويظهر أنه ما كان ليختلف إلى العلماء إلا قليلا في أوقات فراغه، وقد كرس حياته

للسوق، إلا أن علماء عصره لما رأوا منه هذه العقلية الناضجة نصحوه بالعلم والتعليم على شيخ معين، فانصرف أبو حنيفة إلى العلم في أكثر وقته، وترك السوق، وسبر أغوار العلم بانصرافه إليه أغلب وقته، وبعد أن اتجه للعلم م يجد ما يملأ نزعة الجدل التي تمرس عليها صغيرا إلا علم الكلام كان يجادل فيه المعتزلة والذين يتكلمون في العقائد والنحل المختلفة، فأخذ يذاكر العلماء في شئون العقائد واستمر يتعرف على ما عند الفرق المختلفة، ثم اتجه إلى حلقات الفقه لأنها كانت في نظره النافع العملي للأمة وليس الجدل أو علم الكلام.

قال: "راجعت نفسي، وتدبرت فقلت: إن المتقدمين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، والتابعين، لم يكن ليفوتهم شئ مما ندركه نحن وكانوا عليه أقدر وبه أعرف، وأعلم بحقائق الأمور، ثم لم ينتصبوا فيه منازعين ولا مجادلين، ولم يخوضوا فيه، بل أمسكوا عن ذلك، ونهوا عنه أشد النهي، ورأيت خوضهم في الشرائع وأبواب الفقه، وكلامهم فيه: إليه تجالسوا، وعليه تحاضوا.. كانوا يعلمونه الناس، ويدعونهم إلى تعلمه، ويرغبونه فيه ويفتون ويستفتون، فلما ظهر لي من أمرهم هذا الذي وصفت، تركت المنازعة والمجادلة والخوض في الكلام، واكتفيت بمعرفته، ورجعت إلى ما كان عليه السلف، وجالست أهل المعرفة"

ثقافة فقهية

واتجه أبو حنيفة إلى الفقه واستخراج الأحكام من الكتاب والسنة والبناء عليهما وتتبع آثار – السلف الصالح – وتعرف مواضع اتفاقهم وما جرى من اختلافهم، ليؤسس مذهبه الفقي الجديد، وجلس في مجلس العلماء عالما يدرس

الفقه، وكان في دراساته يتجه إلى لب الحقائق، وتعرف ما وراء النصوص من علل وأحكام، فكان إذا أراد استخراج حكم من نص قرآني اتجه إلى تعرف مراميه وغاياته وعلله، وكانت طريقته في الدرس تشبه طريقة سقراط في محاوراته، فيعد أول من طبق المناهج التربوية السليمة في التعليم، وصاحب نظرية للتعلم بالمشاركة في الفقه الإسلامي، فهو لم يكن يلقي الدرس إلقاءً، ولكن يعرض لمسألة من المسائل التي تعرض له تلاميذه، ويبين الأسس التي تبين عليها أحكامها، فيتناقشون معه، وكل يدلي برأيه وقد يغلبوه ويعارضونه في اجتهاده، وقد يتصاحبون عليه حتى يعلو ضجيجهم، وبعد أن يقلب النظر من كل نواحيه يدلي هو بالرأي الذي أنتجته المحاورات، ويكون ما انتهى إليه هو القول الفصل، الذي يقره الجميع ويرضونه، وهذه الطريقة في التعليم لا يسلكها إلا رجل حر يحترم الاختلاف ويقر حق الآخر في الإفصاح عن رأيه، وله في ذلك عبارة مشهورة لا تصدر إلا من ذلك الرجل العظيم يقول فيها: "رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب"

إن الدراسة بالطريقة التي سبق ذكرها هي تثقيف للمتعلم، وتمحيص لآراء المعلم، فائدتها مزدوجة حيث تعود على التلميذ والأستاذ معا، واستمرار أبو حنيفة على ذلك النحو من الدرس جعله طالبا للعلم، وممحصا لحقائقه إلى أن مات، فكان علمه في نمو متواصل، وفكره في تقدم مستمر، وتنسب لأبي حنيفة رسالة تسمى "العالم والمتعلم"، وفي هذه الرسالة يذكر العلم ونتائجه، وما يسوغ للمتعلم أن يفعله وما لا يسوغ.

موضوعية الخلاف

وكان يتمتع بعده صفات أهمها التسامح، واحترام الاختلاف والخضوع للحق والاستقلال بالرأي، وكان في مناظراته واسع الحيلة، يعرف كيف ينفذ إلى ما يفحم خصمه من أسهل طريق وقد امتلأت كتب المناقب والتراجم بأمثلة على ذلك نسرد منها قصة على سبيل المثال: أنه روي أن رجلا مات، وأوحى إلى أبي حنيفة وهو غائب، وارتفع الأمر في القضية إلى شبرمة الذي كان قاضيا، وأقام أبو حنيفة البينة على أن فلانا مات وأوحي إليه، فقال ابن شبرمة: "أتحلف أن شهودك شهدوا بحق"، فقال أبو حنيفة فقيه العراق: "ليس عليَّ يمين، كنت غائبا" فقال ابن شبرمة: "ضلت مقاييسك"، قال أبو حنيفة: "ما تقول في أعمى شبح فشهد له شاهدان بذلك، أعلي الأعمى يمين أن يحلف أن شهوده شهدوا بحق، وهو لم ير؟".. فحكم ابن شبرمة بما ادعى الإمام وأمضاه.. ومات أبو حنيفة، كما يموت الشهداء والصديقون، وكان ذلك عام ١٥٠هـ – وقد كان في الموت له راحة لذلك الضمير المعاني، وللوجدان الديني المرهف والقلب القوي والعقل الجبار، بعد أن عانى الأمرين من المخالفين له وسجن المنصور له وجلده في سبيل الحق، فجاهد أبو حنيفة لنصرة الحق حتى الموت ليترك لنا ثروة فقهية وقانونية تتسم بالمرونة والعقلانية.

الإمام الشافعي (١٥٠ – ٢٠٤ هـ)

إمام المجتهدين.. وقائد المعتدلين!

هو محمد بن إدريس بن العباس بن هشام بن عثمان بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف، وهو بذلك يجتمع مع الرسول (ﷺ) في النسب عن الجد "عبد مناف" ولد في غزة بفلسطين عام ١٥٠ هـ وقد اجتمع عليه في طفولته الغربة واليتم والفقر، فقد ولد قبيل موت أبيه بسنتين أو ثلاث وترك ولده إلى أمه، فرأت الأم أن تنتقل بولدها محمد إلى مكة ليعيش بين أهله ولا يضيع بين الجاهلين به، وفي مكة أخذت مواهبه تتفتح، وأقبل على طلب العلم، مع فقر حالة حتى أنه لم يجد ثمن القراطيس التي يكتب فيها

وفي البلد الحرام حفظ القرآن الكريم، ثم أقبل على طلب اللغة والشعر والأدب حتى برع في ذلك كله، ثم انصرف اهتمامه إلى علوم الحديث والفقه وتحصيلها من شيوخها وأضاف إلى ذلك حفظ موطأ الإمام مالك سعى إلى لقاء صاحبه فذهب إلى الإمام مالك قبل عام ١٧٠ هـ وقرأ عليه كتابه من حفظه، فأعجب الإمام بذلك الشاب وبقراءته الفصيحة فقال له: "يا محمد اتق الله فسيكون لك شان".. لزم الشافعي الإمام مالك بالمدينة حتى موته عام ١٧٩، وقد ظهر نبوغ الشافعي في الفقه وسائر العلوم وكانت نزعته في الفقه نزعة أهل الحديث، وذلك

لعلمه التام بالقرآن ومعانيه والتشدد في طلب الحديث الصحيح ليكون من أسانيده في الأحكام الفقهية.

ترحال لطلب العلم

ولما كان من دأب العلماء المخلصين في ذلك العصر الرحلة في طلب العلم والسماع من شيوخه لا يبالون في هذا السبيل بما يصيبهم من تعب، وكان الإمام الشافعي كذلك، من الطراز النادر من العلماء ولذلك رحل من بلد إلى بلد طالبا للعلم والتفقه في الدين، فبعد أن أخذ الفقه عن مالك تسع سنوات بالمدينة، وأتم معرفته بفقه مالك تشوق إلى معرفة فقه أبي حنيفة، فسافر إلى العراق وجالس محمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة فأخذ عنه فقه مدرسة أهل الرأي، فاجتمع به بذلك الفقهان: فقه الرأي، وفقه الحديث، وحاول – ونظنه قد نجح – تأسيس الوسيطة الإسلامية في الفقه، وكان صاحب اختراع علم أصول الفقه، وهو علم لازم لكل مشتغل بالفقه ومن له نية الاجتهاد في الدين، فبقواعد هذا العلم الذي وضعه الشافعي يمكن للفقيه أن يعرف المسائل المعروضة بدقة، وأن يضع التعريفات الكلية، والفقه كما أنه فهم المسائل والأحكام أوضح الفهم، فإنه أيضا علم الصياغة لأحكام الفقه بحيث يوضح الحكم والتعريفات اللازمة للوصول إليه.

وكما درس الشافعي الفقه، فقد كان كذلك ناقدا لفكر الإمامين مالك وأبي حنيفة وساهم بعقليته النقدية في صيانة تراث الفقه الإسلامي من التمزق في مجالات التيارات الفكرية المختلفة التي ظهرت في عصره، وأوصى تلاميذه، بألا يأخذوه

بدراسات علم الكلام لأنه في رأيه يورث العند للهوى وركوب الشك والالتباس، ونصحهم بدراسة القرآن والحديث ليستنبطوا الأحكام الفقهية منه.

وارتحل الشافعي إلى مصر بعدما لم يجد صدى لفكره في العراق لأن مذهب الرأي للإمام أبي حنيفة كان قد بسط نفوذه هناك، فسافر الشافعي قاصدا مصر لنشر مذهبه الفقهي سنة ١٩٩ هـ، وفيها وجد المجال واسعا لنشر مذهبه في الفقه.

تجديدات في الفقه

ورغم تجديد الشافعي في أمور الفقه فقد ضيَّق أبواب النظر العقلي ومهد الطريق للتقليد وإن م يقصد ذلك وقد جارى الشافعي غيره من أهل السنة في ذم التأويل لما رآه من غلبة الهوى عليه ووضع القياس في آخر أصول الفقه بعد الإجماع.

ومؤلفات الإمام الشافعي كثيرة ولكن أشهرها وأهمهما هو كتاب (الأم) الذي يعد مرجعا يضم تراث الفقه الإسلامي قبل الشافعي وبعده، ويتكون من حوالي مائة وأربعين كتابا، ويعده المستشرقون أول موسوعة فقهية إسلامية لما تضمنته من أحكام ومسائل وأصول لا يتأتى لغير الشافعي أن يلم بها؛ فهو بجانب دراسته لفقهي مالك وأبي حنيفة درس في مصر فقه الليث بن سعد الذي وصفه بأنه أفقه من مالك، مما جعل عقليته مرنة في صناعة الفقه للمجتمعات المختلفة، فنراه يعدل من فتواه الفقهية المختلفة بين ما يناسب العراق وما يناسب مصر وهو يعطي نموذجا لأن لكل مكان خصوصية، ولكل فتوى أو قضية ظروفها الخاصة التي قد لا تتفق مع فتوى

سابقة في نفس الوضع، فلكل مجتمع لون من الاجتهاد عنده إن اختلفت الأحكام فيها إلا أن النص الواحد يحتمل حكمين بينهما خلاف، ذلك ليكون لكل مجتمع ما يناسب أعرافه التي يجيزها الإسلام ولا تناقض معه ولذلك قيل عن الإمام الشافعي أنه صاحب الفقهين.

وتوفي الشافعي في مصر سنة ٢٠٤ هـ وترك لنا ميراثا ضخما من الفقه الوسطي الذي يمثل روح الإسلام المتوازنة بين النقل والعقل والدراسة والرواية والاجتهاد بالرأي والاحتكام إلى النص، فيعد الشافعي فقيه المذهب الوسطي في الإسلام محققا قوله تعالي "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس"

الحسن بن الهيثم (٣٣٤ هـ – ٤٣٠ هـ)

العالم الجامع.. الباحث عن الحق

يجمع المؤرخون في الشرق والغرب على أن الحسن بن الهيثم هو مؤسس علم الضوء الحديث كعلم يعتمد على المشاهدة والتجربة العلمية والقياس الرياضي المنطقي الصحيح، وقد ظل ابن الهيثم المتوفى سنة ١٠٣٨ م المرجع المهم لعلماء أوروبا حتى القرن السادس عشر، وعنه أخذ باكون وكيلر وليوناردو فتيش.

نشأ الحسن بن الهيثم "أبو علي" في البصرة وعاش زمنا في الشام ثم سافر إلى مصر بدعوة من الحاكم بأمر الله الفاطمي لإقامة خزان على النيل جنوبي أسوان لما بلغه من وجود هضبتين عاليتين على جانبي النيل هناك، ولكنه عندما عاين موضع الجنادل جنوبي أسوان اعتذر للحاكم عن صعوبة القائم بالمشروع.

وقد اختلفت الآراء في الأسباب الحقيقية التي دفعت عالما كبيرا مثل ابن الهيثم إلى ذلك، وبقي الحسن بن الهيثم في القاهرة وسكن بجوار الجامع الأزهر، وانصرف إلى الدرس وتأليف الكتب والرسائل العلمية، فأضاف كثيرا إلى علوم الضوء والفلك والرياضيات والهندسة حتى لقب بـ "المهندس البصري نزيل مصر"، ومن أمتع كتبه "المناظر" وتوجد نسخة مصورة منه في مكتبه كلية الهندسة بجامعه عين شمس، وقد شرح فيه تركيب العين ووضع أسماء محدودة لأجزائها كما بين وظيفة كل عضو فيها وشرح عملية الإبصار وميزة النظر بعينين اثنتين في الرؤية المجسمة والإحساس

ليدخل العين فينقله العصب البصري إلى المخ، وكان فلاسفة اليونان يقولون بأن العين الأشعة التي تقع على الأجسام فتراها! وابتكر الحسن ابن الهيثم في كتابه المناظر الفكرة الأساسية لأول آلة تصوير اخترعت بعده بتسعة قرون، وكانت صندوقا محكما به ثقب ضيق يقوم مقام العدسة، ولأن الهيثم أبحاث قيمة في العدسات والمرايا ووصف الشكل الأمثل "للمرآة المحزقة" التي تعطي أكبر تركيز للأشعة الضوئية، وهو المستعمل الآن في مرايا أجهزة الأنوار الكاشفة والأفران الشمسية.

وخلف مكتبة علمية كاملة من مؤلفاته تضم ٥٨ مصنفا في الهندسة و٣٦ كتابا في الحساب والجبر والرياضيات، وكتابا في الضوء والبصريات، وكتابين في الطب ورسالة في تشريح العين، وحوالي ٤٠ كتابا في العلوم الفقهية واللغوية والفلسفية.

الخوارزمي.. أبو الرياضيات

هو محمد بن موسى الخوارزمي ولد في قرية بالقرب من بغداد، هاجر هو وأهله إلى هذه القرية من بلدتهم خوارزم، لذلك أطلق عليه الخوارزمي، كان يعمل بالزراعة، إلا أنه كان مهتما بأشكال الأشياء والمسافات بينها وتقدير ارتفاعاتها وتوصيل الخطوط الوهمية من مكان إلى مكان.. انتقل إلى بغداد لتلقي العلم وبرع في الرياضيات، عمل أمينا لخزانه الكتب بمكتبة قصر الخلافة ببغداد، فزودها بنسخ من المراجع الأمهات في الرياضيات، والتاريخ، والجغرافيا، والفلك.

شارك علماء المأمون في أعمال المرصد الفلكي الذي أقامة الخليفة ببغداد لمعرفة محيط الأرض ومساحتها وتقدير خطوط الطول والعرض بصورة أكثر دقة مما عرفه بطليموس، وضع ملاحظاته وما وصل إليه في كتابة "الربع المعمور" أو "صورة الأرض وما فيها من المدن والجبال والبحار والجزائر والأنهار"، وزود هذا الكتاب بجداول فلكية لحركة الكواكب في الفضاء، وقام بدراسة الجداول الفلكية التي تحدد حركة الكواكب في الفضاء، ولخَّص الكتاب الهندي "السدهانت" الفلكي وسماه "السند هند الصغير" لينشر به معارف علم الفلك الهندية بين طلاب هذا العلم وعلمائه في بلاد المسلمين وعدل جداوله وفق ما تفرضه دراسته للرياضيات عن مسارات الكواكب في الأفلاك

اهتم الخوارزمي بدراسة الجبر إلى أن وصل إلى علم جديد وهو علم الجبر والمقابلة، وقد أدخل مصطلحات جديدة من بينها: الجذر، المال، الفرد، العدد، ووضع كتابا بعنوان "الجبر والمقابلة" أورد فيه الضرب، والجمع والطرح، والقسمة، والمعادلات، والمساحة، مساحات السطوح المستقيمة، مساحات الدوائر والمثلثات. حجوم الأشكال الهرمية والمخروطية، مسائل البيع والإيجارات، الصرف للنقد والكيل والوزن، تقسيم التركات وتوزيع المواريث بين الوارثين، وقد نجح في حل معادلات الدرجة الثانية.

وقد أدخل الصفر إلى الأرقام بدلا من الفراغ، وكان للصفر قيمة كبيرة جدا فهو على يمين الرقم يعني قيمته العشرية أو المئوية أو الألفية، كما وضع طرقا جديدة للعمليات الحسابية من جمع وطرح وضرب وقسمة

هذا وقد ترجمت كتب الخوارزمي في الجغرافيا والجبر والحساب إلى اللغات اللاتينية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والروسية، ونشرت في دول العالم الغربية.

الطرطوشي (٤٥١ – ٥٢٠ هـ)

العالم السياسي الزاهد !

مولد أبو بكر الطرطوشي في سنة ٤٥١ هـ في مدينة طرطوشة المنسوب إليها، وهي مدينة كبيرة من مدن الأندلس تقوم على سفح جبل إلى شرق بلنسية وقرطبة، بينها وبين البحر عشرون ميلا وهي مدينة وهي مدينة منيعة يحيط بها سور حصين من الصخر بناه بنو أمية، وبها دار لصناعة السفن.

في هذه المدينة الأندلسية نشأ فقهينا وعالمنا أبو بكر الطرطوشي، وفيها درج ينعم بجمالها الطبيعي الملهم ، وفي مسجدها الكبير تلقى علومه الأولى، ولما شب عن الطوق رحل إلى مدن الأندلس الكبرى الأخرى يستزيد من العلم، فذهب إلى مدينة سرقسطة، واتصل بكبير علمائها في ذلك الوقت القاضي أبي الوليد الباجي، وأخذ عنه مسائل الخلاف، وسمع منه وأجاز له، وأبو الوليد الباجي هو شيخ الأندلس وعالمها في ذلك الوقت دون منازع وخاصة بعد وفاة نده ومنافسه ابن حزم، فإليه كانت تشد الرحال، وإلى حلقته كانت تفد جموع الطلاب من مشارق الأرض ومغاربها، ويبدو أن الطرطوشي بدأ يتتلمذ على الباجي وهو في سن العشرين أو نحوها، أي حوالي سنة ٤٧٠ هـ، لأن أبا الوليد الباجي توفي سنة ٤٧٤ هـ .

واشتاق الطرطوشي بعد ذلك كما كان يشتاق زملاؤه من فقهاء الأندلس، شاقته الرحلة إلى المشرق للحج وطلب العلم، أو لعله أعجب بسيرة أستاذه الباجي،

فأراد أن ينهج نهجه، وكان الباجي قد رحل من قبل إلى المشرق، وحج ومكث بمكة ثلاثة سنوات ثم زار مدن الشرق الكبرى: بغداد، الموصل، دمشق، وعاد إلى وطنه ثلاثة عشر عاما، حصل وقتها على علم كثير، وأفاد تجربة على الجدل والمناقشة فأثار في محافل العلم الأندلسية ضجة كبيرة.. فلم لا يحتذي التلميذ بأستاذه، فلعله يبلغ من المجد العلمي ما بلغه أستاذه، ففي عام ٤٧٦ هـ، غادر الطرطوشي وطنه، وهو في مقتبل الشباب في الخامسة والعشرين من عمره، ليبدأ رحلته إلى الشرق، ونحن لا نعرف شيئا عن المرحلة الأولى من رحلته هذه، ولكننا نلقاه أول من نلقاه في مكة، وقد استقر قليلا بها بعد أداء فريضة الحج، يلقي الدروس ويحصل العلم ويعلم المريدين.. ولم يمكث الطرطوشي في مكة طويلا، بل استأنف رحلته واتجه إلى بغداد فقد كانت بغداد في ذلك الوقت مركزا من أهم مراكز العلم في العالم الإسلامي، وكانت قبلة العلماء في المشرق، فرحل إليها الطرطوشي يستكمل دراسته فيها ويتصل بعلمائها الأعلام ويتتلمذ عليهم، ويأخذ عنهم، وكان يلي أمور الشرق في ذلك الوقت "نظام الملك" وزير الملكين السلجوقيين: ابن أرسلان وملك شاه، وهو وزير عالم يحب العلم والعلماء ويقربهم إليه، ويغدق عليهم العطايا، وقد شهد الطرطوشي أثناء مقامه في بغداد آثار هذه السياسة العلمية الحصينة التي اصطنعها نظام الملك لنفسه وللدولة، وأشاد بذكرها في كتابه "سراج الملوك".

وأخص ما يذكر به نظام الملك في التاريخ أنه منشئ المدارس في العالم الإسلامي، فقد كانت المساجد في عصره هي معاهد العلم، فيها تعقد حلقاته ودروسه، فكان نظام الملك أول من أنشأ معاهد مستقلة للتعليم، يتفرغ فيها الطلاب للتعلم والمدرسون للتدريس وأوقف كثيرة للصرف عليها، واسماها المدارس، وحملت

كـل مدرسـة منهـا اسـمه، فكانـت تسـمى النظاميـة، وكانـت أكبرهـا وأشـهرها "نظاميـة البغداد" التي بنيت قبيل وصول فقيهنا أبي بكر الطرطوشي إلى بغداد، وقد شهد الطرطوشي نظامية بغداد وهي في أوج عظمتها، وتتلمذ بها، ووصف قصة بنائها في كتابه سالف الذكر "سراج الملوك"، وكان أول من عين بالتدريس بنظامية بغداد أبو نصر ين الصباغ، ثم تولى التدريس بها عدد كبير من فقهاء الشافعية، من أمثال أبي إسحاق الشيرازي، وأبي سعد المتولي، وأبي بكر الشاشي، وحجة الإسلام أبي حامد الغزالي.

صفة خاصة

ورغم أن أبا بكر الطرطوشي مالكي المذهب، فقد تتلمذ على معظم فقهاء الشافعية، وعلى بعض فقهاء الحنابلة، وزار الطرطوشي أثناء مقامه في العراق مدينة البصرة وتتلمذ فيها على أبي علم بن محمد الشتري، ثم يمم وجهه شطر الشام، وقد دخلها بعد أن أتم دراسته، وحصل من العلوم ما حصل، وبعد أن بلغ من النضج الفكري درجة تؤهله للتدريس لينفع الناس بعلمه، وبعد أن كون لنفسه فلسفة خاصة تقوم على الزهد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالسمة الظاهرة التي تميز أبا بكر الطرطوشي منذ دخل الشام إلى آخر حياته أنه عالم زاهد، والذي تجمع عليه المراجع التي ترجمت له أنه قضي الفترة التي عاشها في الشام يعلم الناس، فأقبلوا عليه وأحبوه وأفادوا منه، فعلا اسمه، وبعد صيته، وأنه عاش هناك متقشفا عابدا زاهدا.

ولسنا نعرف أي المدن الشامية زار الطرطوشي غير بيت المقدس، ولكن من المرجح أنه زار دمشق وأقام بها، وأنه طوف في معظم مدن الشام الأخرى، وأنه ذهب في تطوافه إلى أقصى الشمال فزار حلب، ثم نزل إلى أنطاكية فهو يروي في "سراج الملوك" حادثة له يفهم منها أنه زار أنطاكية.

ويفهم من روايته هذه أنه كان في أنطاكية حوالي سنة ٤٩٠ هـ، فهو يقول عند ذكره لها: "وهي إذ ذاك في حرب للروم" ولعله يقصد الحروب الصليبية، فإن الحملة الصليبية الأولى وفدت إلى الشرق سنة ٤٩٠ هـ، ثم ما لبث أن استولت على سواحل الشام كلها بما فيها أنطاكية، وأغلب الظن أن ذلك الحادث الخطير هو الذي دفع الطرطوشي دفعا إلى ترك الشام، وغادرها منذ ذلك الحين واتجه إلى مصر، ونزل بالإسكندرية حيث اتخذها مقرا له.

ولم يلبث الطرطوشي في الإسكندرية إلا قليلا حتى عرف واشتهر، وجذب الطلاب والعلماء إلى حلقات دروسه، وتزوج بعد وصوله بقليل من سيدة موسرة من نساء الإسكندرية، فأطلقت يده في أموالها، وتحسنت أحواله، ووهبته دارا من أملاكها، جعل سكنه معها في الدور العلوي، واتخذ من الدور الأسفل مدرسة يلقي فيها دروسه.

وبعد أن استقرت الحياة بالطرطوشي في الإسكندرية خرج لزيارة العاصمة القاهرة، وقصد زيارة الوزير الأفضل شاهنشاه بعد أن سمع عن جبروته وقوته وسلطانه، وذهب إليه لا ليسأله منحه، ولا ليقدم له المديح ويشيد بذكره، بل لينصحه نصيحة العلماء المخلصين وليعظه الموعظة الحسنة، وليطلب إليه الرفق بالرعية،

وإشاعة العدل بينهم وتفح أبواب قصره لكل شاك ومتظلم وقد أثبت الطرطوشي نص موعظته الجريئة هذه، كتابه "سراج الملوك".

ثم عاد إلى الإسكندرية ليستأنف سيرته الأولى، وليفرغ للعلم والتعليم وتكاثر عدد طلابه وأقبلوا عليه وأحبوه، واصطنع لهم هو طريقة جيدة هي أقرب شئ إلى طرق التربية الحديثة، فلم يقتصر اجتماعه بهم على حلقات الدرس ثم ينفضون من حوله، بل كان يصطحبهم ويخرج معهم في معظم الأوقات في رحلات خارج المدينة إلى البساتين والأماكن الخلوية، وهناك في الهواء الطلق يلقي دروسه أو يذاكرهم فيما حفظوه ودرسوه، وشاقت هذه الطريقة تلاميذه، فأقبلوا عليه، وكثر عددهم حتى إذا خرج في رحلة من هذه الرحلات خرج في كوكبة لا تقل عن أربعمائة طالب.

فتن وتقلبات

ولكن هذا الإقبال جر عليه الوبال، فقد ضاق به قاضي الإسكندرية ابن جديد ضيقا شديدا وخاصة أن الطرطوشي كانت له فتاوى كثيرة يعارض بها بعض النظم والقواعد القائمة التي تأخذ بها الدول، وهو ينتقد كثيرا من العادات السائدة في المجتمع والتي تنافي أصول الدين، وألف في ذلك نقدا سماه "بدع الأمور ومحدثاتها" ولما وصل ذلك إلى الوزير الفضل شاهنشاه أمر به فجأة إلى القاهرة وأمره بالبقاء في الفسطاط، وحدد إقامته في مسجد الرصد الجنوبي، ومنع الناس من الاتصال به والأخذ عنه، وعين له راتبا "شهريا" بضعة دنانير يأخذها من متحصل جزية اليهود، وسمح لخادمه بالبقاء معه، ويبدو أن الطرطوشي قضى في اعتقاله مدة طويلة تبلغ شهورا فضجر من التضييق على حريته واشتد كرهه للأفضل، تقول المراجع:

"وكان الشيخ يكره الأفضل فلما طال مقامه به – أي بالمعتقل – ضجر وقال لخادمة إلى متى نصبر فلما كانت صلاة المغرب قال لخادمه: رميته الساعة" فلما كان من الغد ركب الأفضل في موكبه فقتل .. ومن الثابت أن الأفضل قتل في اليوم السابق لعيد الفطر سنة ٥١٥ هـ، وهذا بالتالي يحدد لنا المدة التي اعتقل فيها الطرطوشي، فهو قد أعتقل في أواخر سنة ٥١٤ أو أوائل سنة ٥١٥ هـ، وظل في الاعتقال إلى شوال من نفس السنة وانكشفت الغمة عن الطرطوشي، فقد ولي الوزارة بعد الأفضل المأمون البطائحي، وكان يعلم ما بين الرجلين، فأخرج عن الشيخ وأكرمه إكراما زائدا وقربه إليه.

وعاد الطرطوشي إلى الإسكندرية واستأنف بها حياته ونشاطه العلمي، ولكن هذه المحنة لم تقلل من حدته، فقد كانت تشغله دائما الأمور التي كان يراها منافية للشرع والعدل والتي سبق وأن تقدم للأفضل بطلب تغييرها، وقد خشي الطرطوشي أن تأخذ الوزير أبهة السلطة فيسير على نهج سلفه، ولهذا بدأ بعد عودته إلى الإسكندرية مباشرة يؤلف كتابا في فن السياسة وما يجب أن يكون عليه الراعي والرعية، وأتم هذا الكتاب في سنة كاملة وسماه "سراج الملوك" وفي شوال سنة ٥١٦ هـ حمل الكتاب وسافر إلى القاهرة ليقدمه للوزير المأمون البطائحي، وليعيد الحديث معه في الأوضاع السيئة في الدولة والتي لا يقرها الشرع.

وبعد نحو شهرين من إقامته في القاهرة أزمع العودة إلى الإسكندرية، فذهب إلى الوزير يشكره على حسن استقباله، ويودعه، وتقدم إليه في هذه المقابلة بمطلب أخير، طلب منه الموافقة على إنشاء مسجد جديد بالإسكندرية بظاهر الثغر على

البحر فرحب الوزير بطلبه وكتب في الحال في قاضي الإسكندرية يأمره بالإشراق على المسجد المذكور على باب البحر "وباب البحر كان قريبا من ميدان المنشية الحالي وهذا المسجد للأسف من المساجد التي هدمت وتلاشت معالمها فلا وجود له الآن في المدينة".. وقد توفي الطرطوشي في التاسعة والستين من عمره في عام ٥٢٠ هـ ودفن في مقبرة "وعلة"، وقد ظل قبره طول القرون التالية وحتى اليوم معلما من أهم المعالم التي تعين الباحث على دراسة جغرافية المدينة.. وترك لنا حوالي اثنين وعشرين مؤلفا أهمها: "مختصر تفسير الثعالبي"، "كتاب الأسرار"، "نقد إحياء علوم الدين للغزالي"، "الكتاب الكبير في مسائل الخلاف"، وكتاب "سراج الملوك" الذي سلف ذكره، ويعد من أهم مؤلفات السياسة الإسلامية في عصره.

القزويني (٦٠٠ – ٦٨٢ هـ)

عالم الطبيعيات الفقيه

القزويني عالم عربي معروف، ويكني بأبي عبد الله زكريا بن محمد بن محمود القاضي، وكان إماما وعالما وفقيها، ولد بمدينة قزوين عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٤ م) ورحل إلى دمشق وهو شاب وتعرف بابن عربي، وتولى قضاء واسط والحلة في زمن المعتصم العباسي، وعندما سقطت بغداد في يد التتار عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) كان القزويني لا يزال في هذا المنصب.

ويرجع نسبه إلى الإمام المشهور أنس بن مالك، ولذلك كان منزلة دينية معروفة، وقد ترك القزويني بعض المؤلفات التي تدل على ثقافته وتفكيره، منها كتابة الشهير "عجائب المخلوقات والحيوانات، وغرائب الموجودات"، ويتحدث هذا الكتاب في الفلك والجغرافيا الطبيعية عند العرب ويعد من أوفى المراجع في هذا الميدان، لولا ما يشويه من الأوهام التي كانت شائعة على ذلك العهد. وقسم القزويني المخلوقات في هذا الكتاب إلى العلويات (ما يتعلق بالفلك والكواكب والشمس والقمر) والسفليات (المخلوقات الأرضية من الإنسان والحيوان وغيرهما).

وله من الكتب أيضا في التاريخ (آثار البلاد وأخبار العباد) وتحدث فيه عن الحاجة الماسة إلى أحداث المدن والقرى والتأثير الجغرافي على السكان، وأقاليم الأرض ثم أفاض بعد ذلك في أخبار الأمم الماضية وتراجم كثير من الأولياء والعلماء

والسلاطين والشعراء والوزراء وغيرهم، وكذلك (خطط مصر)، وكتابه (الإرشاد في أخبار قزوين).. شغف بالفلك والطبيعة والنبات والحيوان والجيولوجيا بشكل خاص، ويعتبر كتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) من أنفس مؤلفاته.. كان يوصي بإدامة النظر في عجائب صنع الله، مسترشدا بقوله تعالى "أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج".

يقول في مقدمة ذلك الكتاب: "وليس المراد من النظر، تقليب الحدقة، فإن البهائم تشارك الإنسان فيه، ومن لم ير من السماء إلا زرقتها ومن الأرض إلا غبرتها، فهو مشارك للبهائم في ذلك وأدنى حالا منها، وأشد غفلة كما قال تعالي: "لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين...." إلى أن قال: "أولئك كالأنعام بل هم أضل".. وهنا يتضح اهتمام العالم بالنظر العقلي، والتفكير في خلق الله، واحترام العلم، وإعمال العقل.. يقول القزويني: "لقد حصل لي بطريق السمع والبصر والفكر والنظم حكم عجيبة وخواص غريبة فأحببت أن أقيدها لتثبت، وكرهت الذهول عنها مخافة أن تفلت".

وصف الأنهار

وذكر القزويني في كتابه جملة من الأنهار، ومن بينها نهر النيل الذي قال عنه: "ليس في الدنيا نهر يصب من الجنوب إلى الشمال، ويمد في شدة الحر حين تنقص الأنهار كلها، ويزيد بترتيب وينقص بترتيب غيره".. والعجيب أن القزويني تناول "النفط" في كتابه وقال "إنه يطفو على الماء ومنه أسود ومنه أبيض وقد يصاعد الأسود بالقرع فيسير أبيض ينفع في أوجاع المفاصل وبياض العين والماء والنازل

فيها"، كما وصف شرب "النفط" في بعض الأحوال المرضية مثل المغص والديدان المعوية وإخراج الأجنة الموتى من بطون الحوامل.

وقد تنبه القزويني في كتبه إلى العلاقات الموجودة بين العلويات والسفليات، فأشار إلى العلاقة بين ضوء القمر والنبات، وضوء القمر والمد والجزر في البحار.. ويدل أسلوبه في العرض على ثقافته الواسعة وإدراكه الشامل.. لولا أنه أحيانا يخلط الحقائق بالأوهام، ولعل هذا يرجع إلى أنه سجل أوصافه لمواضع لم تطأها قدماه، بل سمع عنها سماعا.. ومن العجيب أن القزويني في كتابه أشار إلى طرق الطهي مما يطلق عليه اليوم علم "التدبير المنزلي" فقال: " إن الدجاجة البيضاء تطبخ بعشر بصلات، وكف سمسم مقشر حتى تنهري، ويؤكل لحمها ويحشى مرقها، فإنه يزيد في الباه (الجنس)، ويقوي الشهوة بيد أن الإفراط في تناول الدجاج يورث البواسير والنقرس".

ولا يغيب عن الذهن أن هذه المعلومات قاصرة ويخالطها كثير من الباطل بيد أنها كانت في عصره فتحا جديدا في هذه الألوان من المعرفة الإنسانية. ويتعجب من النحل فيقول: "كيف يقوم هذا الحيوان – لاحظ تصنيفه القاصر – الضعيف بعمل هذه المسدسات المتساوية والأضلاع التي يعجز عن مثلها المهندس الحاذق مع الفرجار والسكر" على حد تعبيره، وترك لنا هذا العالم المبتدئ هذه المؤلفات ليتوفي عام ٦٨٢ هـ – ١٢٨٣م.

المقريزي.. وعلم التاريخ

هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، أصله من بعلبك وينسب إلى حارة المقارزة، ولد بالقاهرة في القرن التاسع الهجري، ونشأ بها ثم توفي فيها، تولي الإمامة والخطابة، وذهب إلى الشام مع والده وهناك عرض عليه تولي القضاء، لكنه رفض وعاد إلى القاهرة.

أحب المقريزي التاريخ حبا جما ووجده من أهم العلوم لما فيه من مواعظ تفيد الإنسان، قام بدراسة مستفيضة عن تاريخ البلاد وآثارها وله مؤلفاته كثيرة من أهمها كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" المعروف باسم "الخطط المقريزية" تناول في هذا الكتاب دراسة وافية عن أرض مصر، وأحوالها، وعن أهلها، وطرق زراعتها، وأنواع منتجاتها، وأهم مدنها، ومعالمها، وعن خراجها، وأنواع مرافقها.. كما تكلم عن أهم العواصم الإسلامية في مصر، ووصف الجوانب الإدارية فوضح شكل الجهاز الإداري ونظام الحكم الذي كان موجودا في ذلك العصر.

واهتم المقريزي بالنظام النقدي، فقام بدراسة النقد المستعمل في الجاهلية عند العرب من النقود الفارسية والرومانية، وتحديدا أوزانها وقيمتها، وكيفية التعامل بها في التجارة بين القبائل العربية قبل الإسلام ودرس النقود في فجر الإسلام، وعن موقف الدولة في تلك الفترة من استعمال النقد الأجنبي، وكيفية تقييم النقد الإسلامي

الجديد وضبط العيار للاحتفاظ بقيمة ثابتة للنقد العربي الإسلامي، واهتم بمعرفة أنواع النقود التي ضربت في تلك الفترة وتطورات الكتابة عليها.

اهتم بدراسة الأوزان والأكيال المسموح باستعمالها وفق قانون الدولة الإسلامية، وطرق صك العملة. قدم كتابين مهمين في مجال النقد والأوزان وهما: الأول كتاب: "النقود القديمة والإسلامية" وقد أشار في هذا الكتاب إلى نقود مصر قبل الفتح الإسلامي، وطرق دفع الخراج بالذهب في العهد الروماني، وعلق على الدنانير السويدية وعدد ميزاتها.

أما الكتاب الثاني وهو "الأوزان والأكيال الشرعية" تناول فيه تطور النقد الإسلامي، وقدم معلومات عن الدرهم، والدنانير المثقال، والقيراط، والأوقية، والنواة، والرطل، والقنطار.. كما تكلم عن دور الضرب ووظيفة القاضي في الإشراف عليها، وعن قوانين المساحة في الدولة الإسلامية، وحدد طول الفرسخ والميل والذراع الملكي والشبر.

عالم الكيمياء.. جابر بن حيان

ولد بمدينة طرطوس وهي مدينة شمال مدينة أنطاكية بسوريا، وكان والده صاحب حانوت للعطارة.

وقد ولد هذا العالم الجليل عام ١٠٢ هـ ٧٢٠ م وقد عرف منذ صغره بالذكاء والفطنة وظهر عليه حبه وشغفه الشديد لمعرفة أسرار المعادن والأحجار، ورحل إلى الكوفة لتلقي العلم فتعلم الكثير من الأحاديث والشعر وعلم اللغة والفقه بجانب اهتمامه بدراسة علم الطب والكيمياء، فأخذ يبحث في كتب الكيمياء عند الفرس والهنود والصين ولدي أصحاب الحرف والصنائع ممن تلزمهم حرفهم وصناعتهم معارف هذا العلم، هذا وقد بنى لنفسه معامل للكيمياء وأخذ يختبر بنفسه كل ما قاله القدماء من تجارب الكيمياء ليعرف مدى الصدق فيها، ثم بدأ يبحث عن كل جديد في هذا العلم، لذلك فقد سار في دروب لم يطرقها أحد من قبله فكان أول اكتشاف له هو الماء الذي يذبذب الذهب، وعرف باسم "الماء الملكي" كما أنه حصل على ماء الذهب الذي استخدم بعد ذلك في كثير من الصناعات، ثم اكتشف ماء الفضة وعنصر البوتاس وملح النشادر ومركب كبريتيد الزئبق وحامض الكبريتك وسلفيد الزئبق ومركبات أخرى كثيرة، بالإضافة إلى ذلك اخترع المداد المضيء وطلاء للمواد ليقي الثياب من البلل والحديد من الصدأ والخشب من الاحتراق وكانت هذه الطلاءات هي البداية لعلم البلمرات الآن. كما أنه وصف العمليات

الصبغية الكيميائية وصفا دقيقا مثل التبخير والترشيح والتكثيف والتبلور والإذابة والتصعي .

وكان للعالم "جابر بن حيان" قد سبق العلماء في جميع أنحاء العالم في إرجاع المعدن إلى أصله بواسطة الأكسجين، وابتكر آلة لاستخراج الوزن النوعي والأحجار والسوائل والمواد التي تذوب في الماء، كما أنه يعتبر مؤسس علم السموم.

ومن نظرياته: نظرية "الفلوجستين" التي تقول إن كل المواد القابلة للاحتراق والمعادن "الفلزات" القابلة للتأكسد تتكون من أصول زئبقية وكبريتية وملحية وهذا ما وصل إليه العالم بعد "جابر بن حيان" بألف عام وكذلك نظريته التي تقوم بان الاتحاد الكيميائي يحدث باتصال ذرات العناصر المتفاعلة بعضها مع بعض.

جار الله الزمخشري : (٤٦٢ – ٥٣٨ هـ)

مثقف فارس يبحث عن العلم

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر، منسوب إلى زمخشر، إحدى قرى خوارزم من منطقة آسيا الوسطي.. قالت عنه دائرة المعارف الإسلامية إنه فارسي، غير أن المصادر لم تصرح بفارسيته إذ أنه كان يكتب بالفارسية، ومنطقة خوارزم قد ازدهرت فيها الثقافة الفارسية، وعلى كل حال فهو مستعرب يبدو أنه أحب العروبة حبا كبيرا تنم عنه أقواله في احتقار بالشعوبية والإشادة بالعرب.

وقد نشأ في أسرة فقيرة لأب كثير العيال كما يذكر الزمخشري في شعره، ولعل الأسرة كانت نقية حسبة التدين، ولعل ذلك ما جعله ينصرف إلى العلم وإثبات ذاته فيه، فالمنطقة المذكورة في ذلك الوقت كانت ملتقى ثقافي بما ورثت من قديم الحضارة الفارسية، وما تيسر لها في ذلك العهد من مناصرة للعلم وتكريم للعلماء، من حاكم صالح كنظام الملك، ينشئ المدارس الداخلية.

وكان العلم الديني بطبيعة العصر هو العلم المرعي الذي توجه له العناية وتنشأ له المدارس، وكانت خوارزم مأوى الاعتزال (والاعتزال هو مذهب ديني يقوم على العدل والتوحيد ويعرفه جيدا القارئ في كتب الملل والنحل والعقائد) حتى لقد كان حريصا على إعلان اعتزاله، وتعريف نفسه بذلك إذا قدم نفسه.

ثقافة دينية

نشأ الزمخشري في جو يهيئ له ثقافة دينية، بوسائلها المختلفة من الدرس اللغوي والأدب، وكذلك ما كان للاعتزال من طابع معروف بالعقلانية واحترام الحرية، فكان (لجار الله) نصيب كبير من تلك العقلية المتحررة. وقد خرج إلى بخارى من مدن المنطقة طلبا للعلم، وتتلمذ فيها على أكبر العلماء ثم رحل إلى خراسان، واتصل بالحياة طلبا للمكانة فيها، وقد كانت حياة العلماء في تلك المجتمعات مرهونة بحماية الحكام وأولي الأمر، ولو أنه لم يظفر بمراده من ذوي السلطان فرحل إلى أصبهان، ثم إلى بغداد، والرحلة وسيلة لمتابعة تلقي العلم والاستزادة فيه ومناظره العلماء، ثم قصد مكة للحج، وفيها جاور بالحرم مجاورته الأولى عامين عاد بعدهما إلى خوارزم حينا، ثم عادوه الحنين إلى مكة فعاد إليها مارا بالشام، وجاور الحرم مجاورته الثانية لثلاث سنين، ولهذه المجاورات اشتهر بلقب جار الله، وفي مكة ألف كتابه (الكشاف)، وعاد أخيرا إلى خوارزم عن طريق بغداد، وفي وطنه الأصلي وافته المنية، بمدينة "جرجانية" من خوارزم سنة ٥٣٨ هـ .

وفي تلك المجرات والرحلات لقي امرأة وذوي سلطان كان له بهم صلات، وله فيهم مدائح سببت له أحوالا نفسية، تردد فيها بين تحمل وترفع، ثم عاهد الله بعدها ألا يطأ عتبة سلطان، ولاذ بجوار الله في بيته الحرام.

ملامح نفسية

ومن ملامحه النفسية أنه كان قوي الاعتداد بنفسه، وكان مقطوع القدم، اتخذ بدلا منها قدما خشبية، كان يكره ظهورها فيسدل عليه ثيابه الطويلة، وبذلك كان

يعرج في مشيته ثم أنه لم يتزوج، ولم ينعم بمتعة الأسرة، ولذلك ما له من وقع على نفسه، مما جعله شديد الحساسية معتزا بنفسه وعلمه فيقول عن كتابه الكشاف: إن التفاسير في الدنيا بلا عدد .. وليس فيها لعمري مثل كشاف .. إن كنت تبغي الهدي فالزم قراءته .. فالجهل كالداء والكشاف كالشافي .

وللزمخشري عدة مؤلفات ففي العقائد كتب (رسالة في كلمة الشهادة) موجودة نسخة خطية في برلين و(مسائل الغزالي) في برلين كذلك، وفي القرآن وعلومه.. كتاب "الكشاف"، "في قراءات القرآن"، و(إعراب غريب القرآن الذي يسمى نكت الإعراب في غريب الإعراب)، وفي التفسير كتابه المسمى "الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" وله في الحديث وعلومه (الفائق في غريب الحديث)، و"خصائص العشرة الكرام البررة عن المبشرين بالجنة"، و(متشابهات أسماء الرواة) وفي اللغو له (أساس البلاغة) و(مقدمة الأدب) الذي ألفه لتعليم الفرس اللسان العربي و(المفصل) و(الأنموذج) وكتاب (الفسطاط) في علم العروض و(الأمكنة والجبال) في الجغرافية الأدبية، و(مجموع كلام الشافعي وأبي حنيفة) وهو من الكتب المفقودة له.. وله ديوان طب وديوان رسائل متعددة وكتب أخرى كثيرة.

ويمثل الزمخشري الأثر المعتزلي الباقي من عصر الاعتزال، ويعد كتابه في التفسير من أهم الكتب التي تعبر عن التفسير العقلي للقرآن الكريم، ورغم أنه هجر لاعتزاله، من قبل المؤرخين، إلا أن كتبه تبقى شاهدة على عصر من عصور التحرر الفكري وموسوعية الثقافة.

محمد بن زكريا الرازي (٢٣٦ هـ – ٣١١ هـ)

طبيب المسلمين.. وفيلسوف عصره

هو "أبو بكر محمد بن زكريا الرازي"، وقد ولد في الري من أعمال فارس جنوبي طهران عام ٢٣٦ هـ وقد عرف بطبيب المسلمين، حيث أنه برع في مجال الطب.. بجانب ذلك عرف المنطق والرياضيات وعلم الطبيعة.. واشتغل بالكيمياء ودرس الفلسفة وأحبها حبا كبيرا، ومن آرائه الفلسفية أن اللذة ليست شيئا إيجابيا بل ترجع إلى أن الحالة الطبيعة ليست لذة، ولا بألم نتكدر بشئ مؤلم، فإذا زال أحس الإنسان بلذة تكون شدتها بحسب شدة الألم السابق لها.

وقد وضع الرازي مجموعة رسائل فلسفية، منها كتاب "الطب الروحاني" و"كتاب اللذة"، ولكن كانت مهنته الأساسية التي برع فيها هي الطب، فكانت له دراسات وفيرة في هذا المجال، فقد درس مرض الجدري، وأسبابه وأسباب الحصبة. وكان أول من ميز بينهما ووصف مميزات كل منهما، وتوصل إلى أن الجدري من شأنه أن يسبب أضرارا للقلب والنبض والتنفس، وسجل هذه الدراسة في كتاب "الجدري والحصبة" الذي بين فيه كيفية وقاية الوجه والفم واجتناب التشوهات الناتجة عن الجدري.

وتفحص الرازي في جميع الكتب الطبية وأقاويل القدماء الفضلاء من أهل هذه الصناعة فعرف كل الأمراض الكائنة في جسم الإنسان وأسبابها وكيفية علاجها

والعضلات الموجودة في الجسم والأعصاب، وجمع كل هذه الدراسة في كتابه "الحاوي" في الطب وهو يقع في عشرة أجزاء حيث يقع الجزء الأول في نحو ثلاثمائة صفحة، كما أنه مارس التشريح، وهذا ما يتضح في كتابه الحاوي.

كما أنه اهتم بمجال الكيمياء وله مؤلفات في هذا المجال وهو بعنوان "سر الأسرار"، والرازي كان من أكبر علماء الكلام في عصره، وكان ينادي بنظريته في النفس والزمان والمكان، وقسم المواد إلى أرواح مثل الزئبق والزرنيخ والنشا والكبريت، لأنها تفر من النار، وأجساد مثل الذهب وباقي الفلزات، أحجار مثل المغنسيا والزجاج، وأملاح مثل ملح القلي وملح البول وملح الرماد.

هذا وقد شرح الرازي في كتابه "سر الأسرار" الأجهزة المعملية التي كان يستخدمها مثل آلات الذوب وآلات تدبير العقاقير وغيرها من الأجهزة، وتحدث عن المعادن وكيفية تحليلها وعن العمليات الكيميائية مثل التحليل والتصعيد والتشميع.

وقد ترجم هذا الكتاب في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، وهو المرجع الوحيد في استخدام الاختبارات المعملية، وفصل الذهب من سبائكه المغشوشة، وتقطير العقاقير وتحضيرها، والانتفاع بالتكليس لمركبات جديدة، مثل أكسيد الزئبق الأحمر، وقد طبق الرازي معرفته بالكيمياء على الطب فألف كتاب "منافع الأغذية" الذي يبين فيه منافع الحنطة والخبز والماء البارد والماء الساخن والثلج، وللشراب المسكر والأشربة غير المسكرة واللحوم الطازجة واللحوم المجففة والأسماك والخضروات والفواكه، وبيَّن أضرارها كما بيَّن منافعها كما أوضح أيضا الأحوال التي ينبغي على المرء فيها تناولها أو تجنبها.

شهاب الدين الآلوسي (١٢١٧ – ١٢٧٠ هـ)

إمام اللغة والفقه والتفسير

هو شهاب الدين أبو الثناء محمود بن عبد الله بن درويش بن محمد ناصر الدين بن حسين البغدادي الآلوسي، ولد ببغداد يوم الجمعة ١٤ من شعبان سنة ١٢١٧ م

نشأ الإمام الآلوسي في بيت علم وفضل وأدب وأقبل على مناهل العلم في بغداد، وكان يختلف إلى حلقات العلماء مثل النحلة تنهل من كل زهرة رحيقها، ودرس على يد علماء بغداد الكبار، منهم الشيخ خالد النقشبندي والشيخ محمد أمين الحلي ووالده الشيخ عبد الله الآلوسي، وقد بدأ بالتأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وشغل في حياة والده وظيفة أمين مكتبة "حافظ كتب" مدرسة الشهيد علي باشا ببغداد التي كان أبوه فيها رئيس المدرسين، وظل يدرس في مدارس مختلفة أخرها المدرسة المرجانية، وسكن قرب مسجد عبد القادر الجيلي، ولما شاع صيته عند الناس زاده حسده وكثر القول فيه، وهذه حال كل من سبق عصره، أو تفوق في مجاله.

لفت نبوغه الأنظار إليه، فنصبه بعض الوجهاء في عصره بمدرسة أنشاها فعمل مدرسا وواعظا وخطيبا، وحضر الوزير علي رضا باشا إلى بغداد درسه ووعظه في جامع عبد القادر الجيلي في شهر رمضان ١٢٥٠ هـ فأعجب به، واتفق معه على

إنجاز كتاب "البرهان في إطاعة السلطان" فقدمه الآلوسي إليه فأجازه عليه بتوليته "أوقاف مدرسة مرجان التاريخية" والتي كانت منذورة لأعلم علماء بغداد بالكتاب والسنة، وجلب له رتبة "تدريس الأستانة" من الخليفة العثماني، ثم نصبه مفتيا للحنفية – كل ذلك وهو لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره – وفي ذلك الحين بدأ في تأليف تفسيره الشهير (روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني) واشتري دارا من أكبر دور بغداد، وجعل قسما منها مأوى لطلاب العلم، فأتى له الطلاب من أطراف العراق وكردستان، فكان يدرس لهم ويصرف عليهم من ماله، فقلده الخليفة لذلك وساما رفيعا بالإضافة إلى إجابته على أسئلة من إيران أحجم عنها العلماء.

ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره بلغ به المطاف الاستقرار عند شيخه علاء الدين الموصلي، وظل يدرس على يديه العلوم المختلفة حتى بلغ من العمر إحدى وعشرين سنة فأجازه في يوم شهده معظم علماء بغداد، وكان ذلك في المدرسة "الخاتونية" فأعجب به العلماء، وتمنى رئيس التجار نعمان الباجهجي أن يكون مدرسا في مدرسته، فأجاب طلبه واجتهد في العلم والتعليم والوعظ في مدرسته مما كان سببا في محنته التي سنعرض لها فيما بعد.. وكان الآلوسي إمام العربية والفقه والتفسير في زمانه، وقد عين مفتيا للحنفية عام ١٢٥٢ هـ، وكان شعلة وقادة لا يفتر عن الدرس والتدريس حتى أعاد إلى بغداد مجدها العلمي والثقافي.. وكان قد سافر إلى إستانبول سنة ١٢٦٢ هـ من أجل إعادة التولية على الأوقاف المرجانية إليه، وهناك اجتمع بكبار العلماء، وقدم تفسيره "روح المعاني" إلى السلطان، ومنحه السلطان الوسام العالي الشأن عام ١٢٦٩ واجتمع أثناء سفره بعلماء البلدان التي مر

بها، وكتب بذلك كتابين ضمنهما ما لقيه في سفره، وما حصل له من المناقشات والمناظرات، وعين خطيبا في الحضرة الأعظمية بعد وفاة والده ثم نقل إلى الحضرة القادرية.

محنة النبوغ

تعرَّض الآلوسي لمحنة شديدة سببها نبوغه وتفوقه على أقرانه وعلماء عصره، وذلك عندما تولى محمد نجيب باشا الولاية على بغداد فأوقع الحاسدين بينهما ووشي به عند الوالي فعزله عن منصب الإفتاء واتهمه بالتقرب إلى قنصل فرنسا في بغداد، وقد حبس الشيخ الآلوسي في سجنه سنة ونصف، ويرجع الدارسون سبب هذه المحنة إلى وشاية له عند الوالي بانتسابه إلى السفلية التي يعتبرها الأتراك أعدى أعداء المذهب الحنفي وللطرق الصوفية ولذلك كتب الإمام الآلوسي في مقدمة كتابة معتذرا للصوفية موضحا أنه لم يكن يكره الصوفية.. ولما حقد عليه الوزير علي رضا باشا سعى أتباع الطريقة النقشبندية عنده فعفا عنه.

ولكن اشتدت محنته في فترة حتى ضاق وقل الأصدقاء والأعوان وأصابه العسر وانعدم في بيته المال بعد أن عزل من منصبه وأخذت منه أوقاف مدرسة المرجان فصار كما قال: حتى أنه كاد – على حد تعبيره – أن يأكل الحصير الذي تفرش به المساجد.

وطالت أيام محنته وساءت معيشته فلم يجد بدا من الارتحال إلى دار الخلافة (إستانبول) ليعرض حاله على الخليفة، وكان قد أتم تفسيره فاصطحبه معه وسيلة للقاء الخليفة، وكان ذلك في غرة جمادى الآخر ١٢٦٧ هـ، وعمره حوالي خمسين

عاما؛ فمر بالموصل فجزيرة ابن عمر، فآمد، فآزون الروم، ثم فسيواس، وتوقات وصامون على البحر الأسود، ومنها ركب الباخرة إلى دار الخلافة فنزل منزلا كريما على شيخ الإسلام محمد عارف حكم، فأشار عليه أن يكتب إلى الصدر الأعظم مذكرة عن حاله وما يرجوه، وأعجب الصدر الأعظم بما كتب، ومنحه الخليفة مالا جزيلا في كل عام وعاد إلى بغداد بعد أن مكث في دار الخلافة واحدا وعشرين شهرا.

وقد ألف الإمام الآلوسي رسائل عديدة ومؤلفات جيدة، وكان أشهرها تفسيره المذكور، وتناولت مؤلفاته عدة موضوعات متنوعة كالأدب والشعر والتفسير والفقه والمنطق والتاريخ واللغة وغير ذلك، ومن أهم مؤلفاته: "الأجوبة العراقية عن الأسئلة العراقية"، و"نهج السلامة إلى مباحث الإمامة"، و"نشوة السمول في السفر إلى إستانبول" و"النفحات القدسية" وغيرها.

وبعد أن عاد الآلوسي من إستانبول لم تطل أيامه فقد أصيب بحمى بعد مطر شديد أصابه في منطقة الزاب بين أربيل وكركوك، فمرض مرضا شديدا حتى أنه لم يستطع القيام أو النوم وتوفي الآلوسي قبيل المغرب من يوم الجمعة ٢٥ من ذي القعدة سنة ١٢٧٠ في داره التي هي اليوم "مدرسة التفيض" في العاقولية، وتولى غسله تلميذه العالم الفاضل السيد محمد أمين الواعظ، وشيع صباح السبت، وأغلقت الأسواق في بغداد، وشيع بموكب حافل مهيب، ودفن في قبر والدته "صالحة" في مقبرة الشيخ معروف الكرخي، ووردت البرقيات والرسائل بالتعزية من مختلف أقطار العالم الإسلامي ورثاه جمع غفير من العلماء والأدباء والشعراء.

نصير الدين الطوسي (٥٩٧ – ٦٧٢ هـ)

الوزير الخاص والمستشار العلمي لهولاكو !

هو محمد بن محمد بن الحسن المعروف بنصير الدين الطوسي، ولد بطوس سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م. وتوجه إلى التعلم وارتبط بالعلم منذ الصغر، واشتغل بالعلوم الفلسفية حتى صار علما من أعلامها ولاسيما في الجانب العلمي منها، الفلك والأرصاد، ويقال عنه أنه كان سمحا كريما، فاضلا، عالما، عندما استولى هولاكو بن تولوي بن جنكيز خان على بغداد، وجد نفسه ملكا على شعوب من المسلمين تفوق التتار في العلم والحضارة، ووجد أن دولته في حاجة إلى العلماء الذين يديرونها على أصول الحضارة الإسلامية، ولم يجد أقدر على هذا من نصير الدين الطوسي (هذا ما جعل بعض المؤرخين يتخذونه نقصا في شخص الطوسي وعلمه) لأن هولاكو اتخذ الطوسي حكيما ووزيرا واصطفاه مستشار علميا، وكان يطيعه فيما يشير به عليه، ولكن هكذا فعل هولاكو، بينما كان ملوك المسلمين المعاصرون له في مصر وغيرها يتنكرون لهذه العلوم ويحاربون من اشتغل بها من المسلمين، فاستغل نصير الدين الطوسي حاجة هولاكو إليه في نفع الإسلام والمسلمين، وأخذ يجمع ما نهب من الكتب الإسلامية بعد سقوط بغداد بيد التتار وبنى لها خزانة كتب عظيمة وكبيرة بمدينة مراغة، وكانت تحوي أكثر من أربعمائة ألف مجلد، ولولا اهتمامه بجمعها لتلفت عند من لا يعرف قدرها من التتار وغيرهم،

وهذا مما نفع المسلمين منه في هذه المحنة التي نزلت بهم، فأحيا آمالهم، واسترد جزءا من كرامتهم المسلوبة.

ومن إنجازاته أنه أراد أن يبني مرصدا كبيرا بمدينة مراغة، فأقنع هولاكو بفائدته حتى دفع في بنائه ما لا يُحصى من المال، وقد جمع نصير الدين لبنائه جماعة من العلماء، منهم المؤيد العرضي من دمشق، والفخر المراغي من الموصل، وغيرهم وابتدأ بناؤه سنة ٦٥٧ هـ/ ١٢٥٨ م، وقد سار إلى بغداد في آخر عمره ومعه كثير من تلامذته وأصحابه، فأقام عدة أشهر ، ثم توفي بها سنة ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٣ م.

تجديد العلوم

ولم يمت نصير الدين إلا بعد أن جدد ما بلي في دولة التتار من العلوم الإسلامية، وفتح الباب بعده لمن عمل على إدخال الإسلام في قلوب أولئك التتار، ليكون لهم فتح ما فتحوا من بلاده، ومن يجدد للإسلام كرامته إلى ذلك الحد، بعد أن ذهبت في ذلك القرن، أولى من غيره بأن يكون صاحب لقب المعلم والمجدد، لأن الانتصار على التتار لم يكن في الحقيقة بردهم عن الشام في موقعة عين جالوت، وإنما كان يفتح قلوبهم إلى الإسلام وهدايتهم به، فبهذا غلب الإسلام عليهم بعد أن غلبوه، وأخضعهم لسلطانهم الديني بعد أن أخضعهم لسلطانهم الدنيوي، وسلطان الدين أعلى شأنا وأعظم قدرا.. وهذا إلى ما كان لنصير الدين من الكتب الجليلة في علوم الفلسفة والهندسة والفلك والجغرافيا.

ونصير الدين من الذين كتبوا في حساب المثلثات والفلك والجبر وإنشاء المراصد وكيفية استغلالها، وفي الفلك له باع طويل وإضافات مهمة فيه وكتبه من

المصادر المهمة التي اعتمد عليها في عصر إحياء العلوم في أوروبا.. ومن كتبه في علم الفلك كتاب "ظاهرات الفلك" وكتاب "جرحي الشمس والقمر"، و"زبدة الإدراك في هيئة الأفلاك"، وكتاب "التذكرة في علم الهيئة"، وفي هذا الكتاب أوضح الطوسي كثيرا من النظريات الفلكية وقد وضعها بشكل صعب وهذا هو السبب في كثرة الشروح التي وضعها عليه علماء المسلمين وانتقد فيه كتاب المجسطي، واقترح نظاما جديدا للكون أبسط من النظام الذي وضعه "بطليموس" وكذلك أدخل فيه أحجام بعض الكواكب وأبعادها.

ويعترف "سارتون" في كتابه "تاريخ العلم" أن الانتقاد الذي وضعه نصير الدين للمجسطي يدل على عبقريته وطول باعه في الفلك، ويمكن القول أن انتقاده هذا كان خطوة تمهيدية للإصلاحات التي تقدم بها "كوبرنيكوس"، وأخيرا قدر الغرب الطوسي فأطلق اسمه على إحدى المناطق من سطح القمر، وقال سارتون: إنه أعظم علماء الإسلام ومن أكبر رياضيهم.

الفهرس